من نافذة القطار

عبدالله الطيب



منشورات الخرطوم عاصمة الثقافة العربية ٢٠٠٥ م



بروفسير عبدالله الطيب

○ ولد غرب الدامر سنة ٢٥ رمضان ١٣٣٩ هـ الموافق ٢ يونيو ١٩٢١ م

○ والداه الطيب عبد الله الطيب وعائشة جلال الدين الطيب وهو ابن محمد بن أحمد بن محمد المجذوب.

○ تعلم بمدارس كسلا والدامر وبربر وكلية غردون بالخرطوم والمدارس العليا ومعهد التربية ببخت الرضا وجامعة لندن كلية التربية ومعهد الدراسات الشرقية والإفريقية.

○ نال الدكتورة من جامعة لندن SOAS سنة ١٩٥٠ م.

○ عمل بالتدريس بأمدرمان الأهلية وكلية غردون وبخت الرضا وكلية الخرطوم الجامعية وجامعة الخرطوم وغيرها.

○ تولى عمادة كلية الآداب ١٩٦١ ـ ١٩٧٤ م.

○ عين عضواً عاملا بالمجمع اللغوي بالقاهرة ١٩٦١ م.

○ تولى تأسيس كلية عبد الله بايرو بكانو نيجيريا ١٩٦٦ م.

○ عين مديراً لجامعة الخرطوم سنة ١٩٧٤ ـ ١٩٧٥ م.

○ تولى إدارة تأسيس جامعة جوبا ١٩٧٥ ـ ١٩٧٦ م.

○ عمل أستاذأ ممتازاً مدى الحياة (PROFESSOR EMARITEF) بجامعة الخرطوم ١٩٧٩ م

○ له عدة مؤلفات ودواوين شعر.

○ منح الدكتوراة الفخرية من جامعة الخرطوم سنة ١٩٨١ م وجامعة بايرو سنة ١٩٨٠ م وجامعة الجزيرة سنة ١٩٨٩ م.

○ شارك في عدة مؤتمرات في السودان وخارجه.

○ أول رئيس لمجمع اللغة العربية بالسودان منذ تأسيسه سنة ١٩٩٠م وحتى وفاته.

○ له مساهمات في الإذاعة والتلفزيون، فسر القرآن الكريم كله في إذاعة أمدرمان سنة ١٩٥٨ ـ ١٩٦٩ م مع قراءة الشيخ صديق أحمد حمدون.

○ له تفسير جزء عمّ ١٩٧٠ م وجزء تبارك ١٩٩٠ م واعد جزء قد سمع.

○ عمل استاذاً للغة العربية في جامعة سيدي محمد بن عبد الله بفاس المغرب ١٩٧٧ ـ ١٩٨٦ م.

○ توفي ٢٢ يونيو ٢٠٠٢ م

من نافذة القطار

المؤلف:
عبد الله الطيب



وزارة الثقافة

السودان - الخرطوم (٢) - شارع المفتي - جوار البنك السوداني الفرنسي

تلفون : ٤٩٧٤٠٥ ٨٣ - فاكس : ٤٩٧٤٠٢ ٨٣

الطبعة الثانية

١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م

رقم الإيداع : ٢٠٠٤/٢٦٣

لوحة الغلاف

الدكتور حسين جمعان



هاتف : ٧٦٣٥٧٩ ٨٣ - ٧٤٩٩٦٠ ٨٣ - فاكس : ٧٦٣٥٨٠ ٨٣ - ٧٤٩٦٥٦٩ ٨٣

رمز بريدي: (١١١١١) - ص.ب: ٢٠٠٤ - الخرطوم - السودان

www.dar-elassalah.com - E mail: dar@dar-elassalah.com

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ

وبه نستعين

وَلَهُ الحَمْدُ أولاً وَأخيراً وَصَلّى اللهُ عَلى

سَيِّدنا مُحَمَّد وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمْ

الإهـداء

إلى لميس

التي بين الدوحتين تميس

وما هي إلا عادة قد ألفتها
لدى النيل بين الدوحتين تميد
هنالك أوطاني وبدلت غيرها
ألا إن أوطان الرجال قيود
ألا إن دار الفكر وهي سعيدة
لداري وإني عندها لسعيد
فيا ليت شعري هل لميس كعهدها
ولم تتبدل من لميس عهود

١٩٤٥/٦/١٢

إن إبن آدم لحريص على الحياة ، ضنين بها ، صبور عليها ، جزوع من غيبها ، ليس جهد البلاء عنده غير المـوت . فالفقـر المدقـع دواؤه الصبر ، والكدح المضني ، والرضا بالقليل ، والتحسر على ما فات ، والحسد لمن نال ، والمرض المزمن دواؤه الأمل ، والعزاء منه الدمع والحزن . وهو بعد خير من مـوت يقطع الأسباب ، ويجعل بين المرء ودنياه التراب . لاشيء أفظـع من الموت ، ولاشيء أحب من الحياة . ولا حب للملذات مـن مال ونساء وصحة وعافية وتسلط ورفعـة جـاه ، وغزارة علم ، وتمتع بصديق صالح فى بلد صالح لولا أن الحياة لا تتم إلا بهذه الأشياء . ولولا أن الحياة التى هى وجـود فى الدنيا ليس غير ، عزيزة على ابن آدم ، ما كنت لترى آلافاً من هذه السـائمة البشرية يغدون ويروحون ولايدرون إلى أين يساقون .

* * * * *

حجرة من طين بائسة ليس فيها نافذة ولا أثاث .

جدران وسرير كالجدران .

وغبار ملء الفضـاء يتسرب مـن كـل مكان إلى كـل مكـان وكأن أديم المرء يدبغ . وكأن نفسه تختنق

أو تُجرُّ على صخورٍ من مهواةٍ إلى مرقاةٍ وهى تئنُّ أنينا
ولا تجد على الضّر معينا •

يوليو ١٩٤٥

لو ترك مقعده خاليا لكان منه كافيا •

أرسل إلينا برقيــة يأمرنا أن نحضر إلى الخرطــوم ليخبرنا أننا سنُوفَدُ إلى بلاد الإنجليز •

لو كتب إلينا كتاباً لكفانا عناء السفر ومشقته • فلما أن حضرنا لم نجد إلا عِيّا وحَصَرا وصخرةً جامدة لاترجع جوابا ولا تعلم من أمرنا إلا بعض ما نعلم

وحار فى أمر ملابسنا فهو يكتب حينا إلى مكتب التموين [1]• وطوراً إلى مدير المديرية • وتارة يقول :

You should apply again to the Governor

عملاً بنظريــة : ومدمــن القَرْع للأبواب أن يلجا وهو يعلــم أنه سيُراد منّا السفر عمّا قليل ؛ وأن الوقت لايتسع لهذا المطال والكسل والخور والفشل • وكيف لايكون فشلاً والمرء فى حربٍ بين الأفكار المريضة المتضاربة والعقل السقيم المكدود ؟

* * * * *

(١) كان ذلك أيام الحرب وكانت الملابس قد شملها نظام التموين وكان الصوف عزيزا نادرا .

امال اسرع انقشاعا من حباب الماء أسرعت سكبه فى إناء. فيوماً أنا منتظر « م.ع » أن يرسل ويوما أنا منتظر « أ.ظ. » أن يقدم . ويوما أنا منتظر خروف المعارف أن يحصل على شيء من الصوف . إنما هى حيرة وضلال . ولا خلاص إلا رفض هذه المصاعب كلهـا .

أليس من الذلة والقلة والضيم المحزن أن يخبرنا هذا الغبىُّ الفدم أننا غداً موفدون إلى بلادٍ صقيعها منهمر، وبردها يصل إلى العظام وترعد منه الفرائص وهى تحت الصوف السميك ، ثم لا يهمه من تدبير أمر إلباسنا إلا أن يُعطىَ كل منا عشرين جنيها ؟

أليس من الاهمال والخذلان والجهل والبلادة أن يكون مثل هــذا الخروف قيّما علينا ؟

* * * * *

لو رفضتُ هذه الرحلة لمنِيتُ بشرٍّ منها من شماتة لئام طُبعوا على شر خلق وأخبث ضريبة (١) ألسنتهم أحدُّ من السـيوف ، ونزعات صدورهم أفعل من سوارب الحتوف .

أما علم ابن ... أننا ابناء جو حار يلبسون ملابس الليل بالنهار. وليس لهم تدبير مال فيدخر لأمثال هذه الطوارق من نوائب الحق.

إنها لنوائب يضيق منها الصدر ويود المرء لو كان دونها مغمورا. ولعلك تخدع نفسك فتقول إنما تسرى فى سبـيل العـلم وتدلجُ لله هذا العلم كم أطنب فى مدحه المطنبون . وأى مزية للعلم وربه كانع (٢) راكع لا يطعم إلا الذل والأذى والحـزن ؟ وأى مزيـة

(١) ضريبة : طبيعة .
(٢) كانع : خاضع ذليل ههنا .

للعلم فى بلد يسود فيه الحمقى ويستعلى الجهلاء وينال الغنى كل كلـــب ! •

هــذا « هـ • ك » يقول لى كم وفرت وأنا أراوغــه وهــو يحاسبنى حسابا عسيراً • ولو كان أخا رأى وفكر لكان معيـــنا على ضراء العقل • ولكنه لم يخلق للتفكير والمشاركة فى العاطفة، وما هو إلا أمىٌ تخرج من المدارس العليا التى تخرج منها أميون كثير •

١٢ يوليـــة ١٩٤٥

آه آه ، وأوه وأوّ اه وأحأح ، وحسّ حسّ ، وكـــل لفظة قالتها العرب للتوجع والتألم • هذا والله هو الجزع • وإنى لأذكر قول الشنفرى :

بـــكى وبكـــت ثـــم اتّسى بَعْدُ واتســـت
مراميـــلُ عزّاهـــا وعزّتــــه مرمـــــل
شكا وشـــكت ثم ارعوى بَعْدُ وارعـــوت
وللصّبْرُ إن لم ينفـــع الشـــكوُ أجمـــل (١)

ثم أعود فأذكر قول الآخر :

ومانالها حتى تجلتوأسفرَت أخو ثقةمنى بقَرْض ولافرض(٢)

• ووالله لا أظنه إلا كاذبا • والله لو وجـــدت سبـــيلا إلى قرض لاقترضت•وقد عزّ الفرض فى هذه الايام مع الرأسمالية والمادية•

---

(١) هذا من ابيات الحماسة ، والفرض العطية . اى انه صبر للنائبة حتى انجلت ولم يستعن عليها بقرض او بعطية يستجديها .

(٢) يصف الشنفرى ذئبا جائعا يعوى وذئابا جائعات يعوين . فبكين لما بكى . ثم السين به فتعزين لما تعزى .

ومن هم حتى أعنّى نفسى بهم ؟ فليموتوا بغيظهم فإن غيظهم ملهاة عندى أتسلى بها وقد علمتنى صروف الليالى كيف أخلق من الحزن فرحا ومن المصيبة مرحا. فالحمد لله الذى خلقهم فى هذه الدنيا وخلقنى ، وجعل قبحهم مادة أصور بها الجانب المظلم من الدنيا فى غير ماتحامل ولاتزيّد. أطال الله بقائى فى عافية ورغد.

* * * * *

مرت علىّ هذه الأفكار وأنا ضيق الصدر بالدار والغبار ويذكر « د » وهو يحسد « م » ويغتابه وينافسه ويعتد عليه بأنه فاته فى امتحان أو اثنين لما ذاكر من سخافات ... ثم يطلب بعد ذلك أن يكون له صديقا .

ثم ينساه إلى زاوية مظلمة من زوايا العقل الباطن . ولعمرى لقد عاش لو كان هذا عيشا .

* * * * *

كأنى أنظر إلى جلده الأسود الأسود ، وأنفه الأقنى المحدودب وجسمه الضئيل ضآلة الرقشاء ، وعينيه ، وصوته الخافت ، وشعره الشائب .... إنه لبائس .

* * * * *

كأنى أنظر إلى المحطة الوسطى
حيث ترى الخواجة وقميصه ذا الأكمام المربوط عند زنده ، وبنطلونه الرمادى ، ومشيته التى كان فيها قزلا (عرجا) وتكشيره

بين آن وآن كأنه على الزوار غاضـــب ، ثم الكراسى التى كانت فى عهد مضى منسوجة بالخيزران • أما الآن فهى مـــن الحبال ، ثم القهوة التى كأنها تفل والتمر الهندى الأحمر •

وجلسة كل يوم عند إحدى الساريات•وزائر يقوم وزائر يقعد• وأسئلة وأجوبة • وحيرة وسأم • و (أ•ع•س) يتحدث عن بيعه وتجارته وما يعروها من رواج وكساد • و (ر•ق) لاصق بالكرسى كالقـــراد •

* * * * *

إن الْجَمَالَ الدِّمِثَ الْمقْتَبِل	المستهام الأَريحــىَّ الثَّمِلُ
تيمنى لكننى أكتـــم الـ	وجد وقلبى جمره مشتعل
أهــواه كالزهــرة رفَّافة	تبسم فى روض نضير خضل
لَدْنٌ الصبا يسطع فى حلة الـ	حسن كما يسطع بَرْقٌ الأَمل
هذت يد النعمة أغصانه	واسكرتها من حيــاء ودَلّ
تحيــة الشـــوق ومناجاته	إذا تهــادى ونسيم الغزل
لميرنو له القلـــب فيبــدى	حُلْمُ الأمانىّ طيوفَ القُبَل

* * * * *

يونية أو يوليــة

لقينا فى محطة ... ونحن إلى الخرطوم لنستعد للندن زَعَمْنناه وسره أن يتحدث إلينا .

ـ تحتاجون إلى بركلافا وقلقز وبالطو صوف وبالطو مطر ...
وأخذ يعدد أصنافا ليرينا تجربته وحذقه وتمرسه بالمدينة وليتملقنا إذ عنده أنا ممن فاز لأنهم أختارونا لنذهب إلى لندن . وليحســدنا ويشعرنا أنه يحبنا لو الحسد والحب يجتمعان فى قلب واحد .

قــال أبو الطيب :

فلشدّ ماجاوزت قدرك صاعدا ولشد ما قربت اليك الأنجم
يؤذى القليل من اللئام بطبعه من لا يقل كمن يقــل ويلؤم
والذل يظهر فى الذليــل مودة وأودّ منــه لمن يودّ الأرقــم *

يوليــو أو أغسطس

الريف المصرى رائع ساحر . لم نر شيئا كهذا من قبل . كان شعورى به فجائيا وانفعالى إزاءه انفعال عجب وإعجاب . واتفق أن أول رؤيتى له كانت فجرا عندما يقترب القطار من أســنا أو يتجاوزها . وكان عليه الندى كأنما خرج من ديماس (الديماس الحمام وجاء هذا الحديث فى صفة سيدنا عيسى عليه الســلام) .
ولبالأمس ما كنا فى رمال حلفا وصحراء العتمــور . كان زمــن الفيضان . وكان السفر بالباخرة بين وادى حلفا وأسوان من المتعات المرتقيات (انظر رسالة الغفران ـــ اللذائذ المرتقيات) إذ كنا جميعا

بالدرجة الأولى.وكان العاملون مخلصين حقا فى خدمتنا ، يظهرون بذلك شعوراً وطنيا إزاء هذا الفوج الأول الكبير من « أفلاذ كبد البلاد » كما تقول بلاغة الصحافة . وفى أسوان ركبنا الدرجة الأولى بالقطار ولكنها لم تكن مريحة إذ كنا ستة فى قمرة . وكان معنا جندى إنجليزى . وكان ساخطا أيما سخط.وأحسب أن الغبار قد ضايقه وأفسد عليه مزاجه فقال لهذا القطار حسنة واحدة ، إنه يوصلك القاهرة .

* * * * *

أول عهدنا بمدينة ضخمة

إن الخرطوم لحلة" كأطلال سعدى فى قفار ملس .

زعم الدكتور زكى مبارك أن سينية شوقى كسينية البحترى أو أجود . لقد والله تعصب وأساء .

كنا نهم بقطع « سليمان باشا » ونحن خائفون . وكان (س) يلبس كسكتة واقترح ركوب التاكسى جزءا من مجابهة الحركة

ـ تاكسى تاكسى

صاحها بتمهله وتقعره ووقف التاكسى وركبنا وركب بكسكتته وإذا ببعض التلتوار يعلق بصوت مسموع :

ـ البرابرة عاملين خواجات .

* * * * *

جاءنا أحد الوجهاء أو أحدان من الوجهاء للحفاوة والترحيب ومحاولة تمديننا . ووضعنا فى عربة بص . كنا نرى عربة بص

فى الخرطوم تحمل طلبة الكمبونى المسيحيين ونعدها من ركائب المدنية . فالآن قد ركبنا بص . (لتروُنَّ الجحيم ثم لترونها عَيْنَ اليقين ثم لتسألُنَّ يومئذ عن النعيم) قال الشيخ فسر النعيم بالماء البارد .

وذهبنا إلى مقهى ليلى بالقاهرة ووضع لنا صف واحد من « الطربيزات » فى وسط المقهى وكنا صفا واحدا دُكتاً إذ كان كل الحاضرين شقرا أو هكذا لاحوا لنا . وقال لنا أحد الوجيهين (أحسبهم بلغوا الآن ثلاثة أو أربعة) .

ــ سترون نمر (جمع نمرة أى رقم)

وما فهمنا . ثم بدأت النمر . بنات شبه عاريات أحيانا . وبنت تغنى ولا تقدر أن تتبين جمال وجه من قبحه . ولكننا كنا مشدوهين ونعلم أنا نشاهد صميم المدنية .

ليت شعرى عن ابن بطوطة الذى اجتهد أن يكسو عاريات النساء فلم يستطع وأوشك أن يأكل الخنزير فى بلاد الروم ... فى حديثه عن الخاتون التى كانت تأكله وتشرب النبيذ تطلع مريب... « أوهمتنا فيك رفضاً » ياسيدنا ...

أهدى لنا علب طحنية لكل واحد علبة . « دَرْوَشَه » . أو بين مكر وبخل . وكانت حقائبنا مليئة بالهدوم الجديدة النظيفة. وإذا وضع المرء فى حقيبته علبة طحنية فلا شك أن زيتها سيتسرب إلى أكمام القمصان وياقاتها فضلا عن الجاكتات من الصوف النادر. كان أحدنا قال للتاجر الأفرنجى ــ أى الذى يعمل فى السوق الأفرنجى ــ بالخرطوم :

أو الراقصات فى النمر إن شئت أن تتمدن وتكفر وتصير إلى جهنم وساءت مصيرا .

جاءوا يقصون علينا ثلاثتهم أو أربعتهم كيف زاروا صالة رقص وقعدت معهم من ظنوها فاتنة والاستملاح تعود" طول السـواد وقرب الوساد . وجعلت تقول سيدر سـين بكسرة مشبعة ودال ساكنة وراء ساكنة والسايدر زعم هازليت أو أحد المحشين على هامشه أنه شراب صلب ، وهذا جلى أنه ضعيف . ممزوج بماء ليمونـاده ! !

ـ انا بحمد الله لا مشيت التياترو ولا شربت الليموناتى

ـ الليموناتى ماله يا عمى الطاهر كمان حرام ؟

ـ ماهو حرام علا (إلا) خايف تعجبنى نفسى أكان شربتـه

ـ فشر أنا أجيب لك رومى ، دا بفبغان بمية وخمسين أهيف ويدفعون عن كل زجاجة سيدر خمسة وسبعين قرشا حتى صرفوا فى ساعتين قريبا مـن عشرين جنيهـا . ياللصوصية السـيدر . ويالغباوتهم .

وذانك ذهبا إلى حديقة الحيوانات ليتغديا

ـ يابا دى اللامـة

لام لامة . نون نعامة . وهى مثل الجمل . وقالت ماء . ونادى به ماء بالإمالة فى شعر غيلان .

ـ يابا قالت مىء مثل العز

سل يلذرا ذات القصـــور هل جاءهــا نبــأ البدور

وفى الكتاب كانت كلمة الزنا والتلامذة كلهم يعرفونها وهــو لايعرفها وهو لابد أن يعرفها

ـ فنــدى الزنا يعنى شنو ؟

وضحك الأولاد . وكان المدرس أباه . « الله يهديك ياولدى » ونزلوا بهزيع ليلة البارحة عند بنى عمهم بالخرطوم الجديدة وجىء لهم برغيف بلبن وسكر . ويذكر الضحى إذ ذهبا للفوّال فأكــلا فى مجموعات من الناس على طربيزات كأنها فصول المدرسة فولا فى صحون صغار وجرجيرا ، فولا فطيرا أى قليــل الملح . وقطعا ساحة غبراء بأم‌درمان بيوتها طين ولا خضرة بها وأكلاعندأقربائهما مكرونة حمراء طاعمة . وركبوا القطار وقال أحد الكبار بالقمرة وكانت عينه توجعه أنا يتيم . « أنت راجل كبــير كيف تكون يتيم » . «أيوه تمام » . «جدا جدا » . دق دق دق دق . ونادوه بإشارة . أبوك خطر . وقالوا له سندوه على الحمار ويقدر اليوم يقعد.ووصل .وسندوه.وكانوا حوله يقرأون يس.وكان ناحلا لا

يتكلم ، وشخص ينظر ، وكان هو قد وصل من البلد البعيد جدا ليجد عمه وابن عمه يعدان أباه للقاء سكرات الموت وكان ولـد أبيه الواحد لا أخ له ولا أخت وماتت أمه منذ دهر ، ولما وصل ورآه أبوه وكان لا يتكلم نظر إليه وتكلم : « ود حلال » ومات قرير عين ، شخص إليه الآن كما كان شخص إليه أبوه ، ولم يتكلم ، عرفته عيناه ، باركته عيناه ، كانت له فيه آمال جسام ، كان يقول له أنت ستحلق كاريه وتسافر لندن أو أوربا وعلمه ست آلاف مسألة حسابية،واللآلىء السنية ولولا يزيد وأيام لنا سلفت يا مائل الرأس إن الليث مفترس رمى بك الله برجيها فهدمها وكتاب حفنى ناصف وجاءوا بفراريهم زرافات يبكون

ـ الخلا والريح تشيل إلى ورا

ونصحناهما ألا يفعلا ، ذلك لأن للحيوانات شذى يحول دون الاستمتاع حقا بالأكل

وجاءهما سفرجى قصير دحداح ذو وجه كرغيفة

ـ عندنا رز بكبد الفراخ

كأنها قذيفة مدفع ؛ « الكرسه !! » (تعجب أى الحربة)

ـ يا جدى عبد الماجد ود حمد (وهو جد الغبش فى طبقات ود ضيف الله رضى الله عنه)

ـ ماذا أكلتما

ـ رز بكبد الفراخ ؛ سبعة وعشرين صاغ

وكان ثمنه غير البخشيش سبعة وعشرين قرشا ونصفا ولكن نسيا موضع النصف فى اللهجة المصرية فحذفاه

* * * * *

أغسطس

فى بورسعيد وابور ضخم يدعى « سبجاك » هولندى ، يسير الآن تحت إمرة ضابط بريطانى ويحمل ثلاثة آلاف من الجنود . وهبطنا سلما وصعدنا آخر .ومررنا بقمرات الدرجة الثانية . وكانت تذاكرنا الدرجة الثانية . ولكننا تجاوزناها أو جعلنا تتجاوزها . وكنا نيفا وعشرين . وكان معنا نيف وعشرين إثيوبيا فكنا خمسين على فرض أن النيف خمسة . وكان قد أعد لنا عنبر من الخيش فيه سراير معلقة . قص علينا أحد إخواننا الذين سبقونا إلى ذلك المكان قصة شجار وقع بينهم وبين الصولات الإنجليز إذ كانوا هناك .

أول ما دخل « ل » وكان شابا حدثا لقيه « صول » كريه واعترض سبيله «هذا مكان معد للصولات لا للزنوج» واستعمل كلمة تقرز (NIGGERS)

وصفى الموقف بعد شكاوى عراض

ولأن تذاكرنا ثانية سمح لنا باستعمال « الصفرة » والحمامات وبيوت الأدب .

وكانت الصفرة ذات رائحة بحرية نكدة

ووقف الضابط يشرح لركاب الدرجة الثانية وكان المتزوجون منهم فقط فى القمرات والباقون فى عنابر الخيش

ـ معاملة خاصة للمتزوجين من أجل السيدات والأطفال أعطوا القمرات • لأن الوابور مزدحم • ولابد من الدقة والنظام • كل الغرف تكون مفتوحة • سآمر نصف الليل وسأضطر لفتح كل غرفة تكون موصدة • وهذا لن يكون بهجا ••• إن فتحنا غرفة فى نصف الليل •

وكان يتكلم بطريقة الشفة العليا الناشفة والسفلى وحدها تتحرك على مذهب الكولونيلات المعروف فى الجيش البريطانى •

ـ هذا الوابور ناشف • إن شاهدتم الضباط البحريين يشربون فهذا لا يستغرب لأن هذا مسكنهم • أما لسائر الركاب فالوابور ناشف • يوجد الشراب الناعم بالبار فى ساعات محدودة ••• أيضا الشاى والقهوة فى الساعة الحادية عشرة • وتمارين العوامات فى الساعة التاسعة ـ وهلم جرا

وبعد يومين شكا أحد الضباط من أن أحد السود ذهب كالناس فى الحمام•وثار بعض كبارنا وتولوا الدفاع عن قضيتنا مع الضابط• وكنا نحن والاثيوبيون صفا واحدا • وكان معنا تركى لا يعرف الانجليزية ولا العربية • وانفضح كذب الشاكى • وقد كان جماعة من الصولات يحسدوننا على الحمام وبيوت الأدب اذ قد كان للجنود نظام خاص لكل ذلك ، فيه خشونة بالغة • وشدما جزعنا أول ليلة إذ ظننا أنه مراد منا أيضا أن نستعمل مرتفقات الجنود ولكن الله سلم •

واكتشفنا بعـد أيام أن الطحنية تستميل بعض قلوب الافرنج • إذ صار من طريقها بعض الصولات أصـحابا لنا • وكان أحدهم مسكين الوجه كالعنز جعل يقص لنا عن أهله • وقد كان البرد فى عنابر الخيش والرطوبة معا أيما مؤلمين • فجعلنا نسأله عـن برد انجلترا وخطر الالتهاب الرئوى • مثلاً قرأنا أن الملك أو الأمير كذا غسل قدمه ولم ينشفه بالبشكير فأصابه برد فمات • وجعل الصول الطيب يحدثنا عن حمام الخردل وفوائده •

وقال جماعة من الإخوان لقد كان فلان صالحا حقا حين أهدى لنا الطحنية وهذه بركتها قد ظهرت والله تعالى أعلم •

كان خليـج بسكاى مرا وصبرنا عليه

واقترينا من إنجلترا • ولاح الساحل أخضر والمبانى منتشرة فيه وكان يوما مشمسا • ووقفنا ننظر مأخوذين مفتونين•ودنا الرصيف ورأينا رجلا أمامه نار وشىء كالقدر يعالجه • كان مـن عمـال الطرقات يوقد على قدر من القار ولكنا لم نعلم ذلك ــ (القـار أى الزفت) ــ

ــ شوفوا ، إنجليزى بستوى له فى شاى •

أى انظروا ذلك إنجليزى يصنع شايا • حسب المسكين أن الإنجليز يصنعون الشاى بالكفتـيرات والحطب كما تفعل فى السـودان وراعه أن يراهم يصنعون •

ونزلنا على الشاطىء الإنجليزى فى سوثهامبتن•وقيل لنا قطار لندن بعد ساعة أو دون ذلك قليلا • وخرجـنا نتمشى فرأينا الترام ذا

الطابقين . ثم رأينا كشكا يبيع الشاى . فلما طلبنا الشاى وجدناه مرا جدا وقد اعتدنا شراب الشاى حلوا

وركبنا القطار إلى لندن . وإذا الريف الإنجليزى بوهاده ونجاده الخضر . لم نر شيئا كهذا من قبل إلا فى الصور

ووصلنا واترلو . وإذا بنساء ضخمات يدفعن أمامهن عربات صغيرات قيل لنا هؤلاء عتالات . لن والله يطلب من إحداهن أن تحمل شنطته فيسمع أهله الشوس بالسودان أنه استأجر عتالة «ستا» لتشيل له شنطته ياللعار . وكان يصطنع المروءة ويدعى التمسك بفضائل القرويين السودانيين وهذه خلة ينتحلها كثير من الناس وقد أفسدهم لين التحضر حتى لم يبق لديهم من فضائل القرية إلا الجلافة . وشر شىء حضرى لين يتجالف كصادية ابن دريد

جَيْفَرَ الوهاب أودى به دهر على هدم المعالى حريص

انظر إلى العنت الرازح فى « دهر على هدم المعالى حريص » كأنه لايهدم غير المعالى .

وكبائية شوقى

بسيفك يعلو الحق والحق أغلب وينصر دين الله أيان تضرب

والحق أغلب وأيان تضرب كل اولئك زوائد وأخذ أيان من قوله تعالى يسأل ايان يوم القيامة ووضعها فى غير موضعها

وركبنا عربة تكسى إلى ربة دار « بيلهم »

هل تذكر الدار بأعلى ذى القور

قد درست غير رماد ممطور
وقد قطرت من عينه دمعة حارة عند الوداع
وكتبت إليه واقتبست قطعة من شكسبير
وأرقنى ليل وشك الوصال أنى تودِيتُ كىْ أدّلج
وأنى هجرت شكاة الفتاة لأصعد عند القطار الدرج
وقد نثرت عطرها المستجاد مع القبلات التى تنفرج

* * * * *

أحب القهوة أحب الشاى
أحب اليافا يافا التى تحبنى
الشاى والقهوة
واليافا وأنا

فضحكنا لنكون أصحاب فكاهة مع أنفسنا وضحك وهو مغيظ . وكان ظاهره هادئا رقيق ظاهر الحاشية ونبئت أنه اشترى من تموينه للحلوى (وكان كل شىء مما يؤكل آنئذ ببطاقات التموين ــ إلا ــ لا أحقق ذلك ــ السمك) قطعا من الشكولاته ثم رأى صبيا له عينان تبصان . وكان صِبْيَة" من قبل قد تصايحوا به « بلاكى » ورأى عينى الطفل كأنه كان منهم فتلطف إليه كالهر واستدرجه حتى ناوله الحلوى ولما ناوله الحلوى قبض بيده وقرص أذنه حتى جحظت عيناه . أتقولها مرة أخرى .

وكانوا يمشون ثم هموا ان يعبروا الطريق وإذا بسيدة معها ولدها يسايرها وإذ به يصيح (مم عاينى نايتقز) والأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف .

* * * * *

كان (م٠ع٠) صاحب مطعم بشرق لندن ٠ وكان مهما جـدا بالنسبة إلى العرب بوجه عام ووادى النيل بوجه خاص ولا سيما ابناؤه الذين كانوا يعملون بالإذاعة ٠

ذلك بأن «ميمعين» هاجر من إسكندرية منذ زمان بعيد،حتى إن لغته قد كانت شيئا غامضا ، حرف انجليـزى ، وآخـر عربى ، بلهجة لا مصرية ولا سودانية ولا ذات لكنه ، وحرف ثالث لعله فرنسى ، لأنه قد ذكر أنه زار فرنسا فى الهاقر وأخبره فرنسى كان يعمل فى موتور طلمبة أن الإفريقيين « مخ مافيشيه » ـ آكسانت٠

واستقر به المقام فى شرق لندن٠وصار له مطعمزبائنه الجمايكون وسواهم من البحارة الملونين ٠ واكتشف بعض غير البحارة مـن أبناء النيل مطعمه ٠ فكانوا يزورونه كل جمعة ، ويعد لهم حجرة جلوسه الخاصة ٠ وإنما كان كل جمعتهم يوم الأحد ٠ وكان يفرش لهم طربيزته المستديرة ٠ ويوضع عليها الخص والبنضورة والبصل على نظام السلطة البلدية ٠ ويذبح ديك أو تذبح دجاجة أو يجاء بأحدهما مذبوحا من يهودى «وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم» ونصارى الأفرنج يخنـقون الدجـاج والبط والإوز والرومى٠ والطواويس يخنقونها فى هولندا ٠ والمنخنقة مما حرّم وللأوربيين فى قتل الحيوانات أساليب منكرة٠منها الطعن بآلة حادة فى الرأس، ثم يقطعون رؤسها من وراء ٠ وأكل الـمُجَثَّمة حرام ٠ وروى عن محمد بن يزيد المبرد أنه أول مادخل خراسان سأله أميرها عن الشاة المجثمة ، فلم يعرفها فى قرارة نفسه ، وكره أن يعترف بذلك، فقال : هى كالشاة اللَّجْبة أى العجفاء وانشد مستشهدا :

لم يَبْقَ من آلِ الحُمَيْدِ نَسَمَةْ إلا عناقٌ لَجِبَةٌ مُجَثَّمة

هـذا ؛

وتوفى (م٠ع٠) ذات يوم . واجتمع البحارون من زنزبـار ، ومن سود العرب وحمرهم ، ومن عجم المسلمين وبعض الإنجليز واليهود.وجاءت نسوةيبكين.ووُضع الصندوق الذىفيهالجنازة للصلاة . وأحاطت بما قبل الصلاة طقوس وثنية فى جهر رهيب من بعض السواحليين . ثم كبر الإمام فحطم الأصنام . وبعد الصلاة وضع الصندوق فى تكسى ليحمله إلى مقبرة المسلمين بوكنج . رحم الله (م٠ع٠) رحمة واسعة .

أكتوبر ١٩٤٥

ضقنا ذرعاً بالسمنارات .

وكان يحضرها معنا مفتش تعليم من جزر الهند الغربية ومفتش تعليم من جنوب نيجيريا . وشكوت إلى صاحبى ضياع زمننا . فلامنى على عدم الصبر ، وكان أعقل منى . ولم أطعه فشكوت إلى الأستاذة ، فنظمت لنا عدة زيارات لمدارس فى نواحى لندن . منها كانت مدرسة هـ

ركبنا إلى هـ بص .... من ماربل آرش . وزرنا المدرسة اياما متواليات وكنا نتغدى فيها . وكان صاحبى قد استثقل ناظر المدرسة الطويل والمدرسة الأولى والمدرسة الثانية.أما انا فلم أبلغ أن أكوّن فكرة عنهم . وكان مما دلنى على استثقال صاحبى للناظر أنه كان يقول : « إنه فرح جدا بالغداء . انظر كيف يأكل بشهية على رداءة الأكل لا لشىء إلا لأنه بخمسة بنسات ، ويمتن علينا فى فرحه لأننا نجد أكله بالمجان أصل ثمنها ثلاثة بنسات . »

وكنت لا ارى معه استثقال المدرسة ولا الناظر على وجه الاطلاق، ولا سيما المدرسة الثانية .

وإنتهت فترة هـ وابتدأت السمنارات مرة أخرى وكتابة المقالات عما جربنا . إن المدرسين أسوأ ما يكونون حين يتحدثون عن التدريس . وقد كنت وصاحبى سبقت لنا تجارب تدريس مع أصناف من الأطفال والأولاد . وكان سائر الذين نلاقيهم فى السمنارات بالنسبة إلينا لا يعلمون شيئا . إلا سمنارات الأستاذة فقد كانوا مجربين بلا عقول .

« شين » مثلا كانت له عينان كالضفدعة وعقل الضفدعة أيضا . وكان « ك » حاذقا لبقا مثل فلان ممن غادرنا وراءنا بالسودان . ولكنى كنت أرى فى سمت وجهه نفاقا كثيرا وانتهازية عميقة ونجاحا مؤسفا كأصناف هذا النجاح الكثير الذى ترتفع به قيم متوسطى الذكاء لدى أذكياء المفتشين الانجليز .

مثلا السير دوجلاس نيوبولد كان ذكيا لاشك فى ذلك . ولكن عقليته الحاكمة لم تكن تزين له إلا أن يعجب بالقردة أو المستقردين تجاهه من السودانيين . أما القردة فمقلدوه ومقلدو أضرابه ضربة لازب ، وأما المستقردون فكانوا صنفين : صنف ذكى يريد أن ينجح ماديا بأى ثمن . وصنف غبى يستملحه هذا الصنف الذكى.

وذهب الناس ليصلوا على نيوبولد وقرأت قوله تعالى «ولا تصل على أحدٍ منهم مات أبدا ولا تقم على قبره » وانبرى لى زاجر زابر يحذرنى العواقب ولعله يكون قد وشى بى فى الذى قلت والله أعلم: « يأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعضَ الظن إثم ولا تجسَّسوا ولا يغتب بعضكم بعضا » ـ صدق الله العظيم .

نوفمبر ١٩٤٥

شـــكوت إلى الأستاذة ضياع زماننا فى لا طائل مرة أخرى .
وجاء الكرسماس ولأول مرة سمعت باليوم المسمى Boxing Day
قرأت ياترى عنه من قبل ؟ لابد ، ولكن لم أكن أفهم ما يـــراد .

ذهبوا إلى الحانة التى فى آخر الشارع « إر » ونظر أحدهم إلى
خادمة الحانة فحادثها فقالت إنما نحن من طبقة عاملة.فاستحلى أحد
من كانوا معهم كلمة طبـــقة كما نطقتها امريكانية المدة (كلاس)
وهى إنجليزية . فكأن جميلا أصاب من بثينة نظرة .

وعند أول الفصل الدراسى ذهبنا إلى مدينة « ر » لنزور مدرسة
تقيم فيها أسبوعين عسى أن نستفيد فيزيل ذلك شكواى . وكانت
من مدارس الكويكرز . وكان المقام فيها نعم المقام .

كنا فى منزل من منازل المدرسة . أعدت لنا حجرة كأحسن ما
تـعَـدُّ حـُجـَر المدرسين القاطنين بالمنزل وكانوا أربعة . وكنا نفطر
صباحا جميعنا مدرسين وتلاميذ . وربة المنزل فتاة حسنة المنظر لما
تتزوج كأنها بسبيل أن تصير عانسا . وربة المنزل شىء بين الإدارية
والمدرسة . وكان المدرس المشرف يجلس على رأس الخوان الكبير
والآنسة العانس على الطرف الآخر . والمدرسون من عن يمـــين
المشرف ويساره.وكان الطعام جيدا كأن القوم لم يسمعوا بتموين
لندن إذ مدينتهم زراعية بها سوق زراعية . هكذا قالوا لنا.وكانوا

يبدأون صباح الدرس بصلاتهم . يجتمعون فى قاعة فيصمتون.ثم أحدهم يستشعر أن الروح حرّكه فيتقدم إلى الإنجيل فيقرأ منه. قرأ أحدهم قصة جونا ـ أى يونس ـ مرة.والتى فى القرآن أفضل أداء منها إذ فيها كالتحليل لشخصية يونس « وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظنّ أن لن نقدر عليه فنادى فى الظلمات .... »
ولا تحسبنّ أن القرآن نظر إلى الإنجيل فنقل منه كما يقول بعض الإفرنج المستشرقين من أمثال أسين . فالراجح عندى أن الإنجيل (بل أعنى الكتاب المقدس بانجيله وتوراته وزبوره وعهديه التليد والطارف) نظر إلى القرآن فأخذ منه وهذا قد يبدو غريبا عجيبا قال الشـيخ محمـد المجذوب بن قمر الدين رحمه الله ونفعنا بجاهه :

حضور إذا غبنا وغيب حضورنا
وذا عجب فليعجب المتعجب

وعندى مع الذى أحسنته من جد الكويكريين وصدقهم فى سمتهم وصمتهم وحين يقرأون وحين يُخبتون إلى الاستماع تكاد أعينهم تفيض من الدمع ، أن عبادتهم مع هذا فيها نوع من صنعة وضرب من تظاهر بالفهم أمام الله « إن الله غنى عن العالمين» إذ بدا لى كأن الكويكرى يقول : « يارب أنا أفهمك تماما . أنا وأنت على مستوى رفيع لا يصلح مع هؤلاء العوام » . والعوام على هذا يكونون سائر الناس غير الكويكريين . ولايخفى ان مثل هذا التفكير ضحل. لأن التصوف الذى يدعى فهم الله والتفاهم معه مسألة فردية بحتة لاتخلو من الجنون.لا يعنى هذا أن المرء لاينبغى له أن يبتهل إلى الله ويسأله ويجأر إليه،إذ ليس فى ذلك تقرب فردى

على معزل من سائر خلق الله فى خلوة خاصة ، وإنما فيه لجوء ـ واللجوء علانية أو ضرب من علانية ـ واستسلام ودعاء خالص وإن شاء الله أجاب . وأحسب أصحاب وحدة الوجود يشيرون إلى معنى من هذا إلا ان اصحاب وحدة الوجود مما جرّدوا الذات تجريدا يخرج أو يوشك أن يخرج بها عن صمدية الله إلى معنى من معانى القوى الذريّة المنطلقة المنبثقة فى الكون فى غير ما أول ولا آخر . وقول الله تعالى فى صفة نفسه تعالى أنه « الأول والآخر » ينفى هـذا كما ترى . وقال تعالى وهو سر ماذهبنا إليـه آنفـا وجوهره : «وقال ربكم ادعونى أستجبْ لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنّم داخرين » .

وأحسب أن النصارى على اختلاف فرقهم ومعتقداتهم يشتركون فى الذى أخذنا على الكويكريين من طلب التزلف الفردى إلى الله من طريق النبوة والضحية فى سيدنا عيسى صلوات الله عليه . وقدفطن كلا المتنبى والمعرى إلى جانب الضعف فى كلا المعنيين . قال أبـو الطيـب :

ويَستنصِران الذى يَعبُدان　　　وعندهما أنّه قد صُلب

وقـال أبو العـلاء :

وما أبهـوا وقد جعلـوه ربّاً　　　لكيلا ينقصوه ويجدبوه

وفى القرآن : « وماقتلوه وما صلبوه ولكن شُبّه لهم» وفى هذا من التنزيه لسيدنا المسيح صلوات الله عليه ما ترى.وقال بعض

المفسرين : أُلقِيَ شَبَهُه على أحدمن كانوا معه ليلة العشاء الأخير. وقيل أُلقِيَ شَبَهُه على يهوذا الأسخريوطى ، والله أعلم أى ذلك كان .

ولا أكاد أشك أن أمر القيامة قد شبّه للمرأة وصاحبتها إن صحت الرواية عنهما .

قريب من هذا أمر البيان عندنا . تزعم امرأة مثلا أن وليًا بعينه تبين لها فى موضع كذا ، فتفتعل تربة وأحجارا ورايات ويصير كل ذلك مقاما يزار . وفى البلاد الأسلامية مقامات من ضرب هذا كثير .

وفى مقرات بيان لأبينا آدم وأمنا حواء مرحلة بالراحلة.لأن سيدنا آدم عليه السلام كان طويلا جدا ، وأمنا حواء كذلك . وينبغى أن شجرة التفاح (على هذا التخيل) كانت أضعاف نخلة الجبّار التى بصحراء مراكش أضعافا مضاعفة . والتفاح ليس بمذكور فى القرآن وإنما المذكور شجرة . فإن كان سيدنا آدم نزل الهند فهى « أنبجة » (منقة) . وإن كان نزل أرض بابل فهى من نخل البصرة أو البرنى والآزاذ الذى جاء فى شعر المتنبى قافية الذال . وإن كان نزل فى شرق إفريقية فالله أعلم أى شىءٍ كانت . وماكانت لتكون التفاح باية حال ، إلا على تقدير أن الجو فى شرق إفريقية كان كجو بلاد التفاح اليوم . اللهم إلا أن يكون قد نزل سيدنا آدم بجبل كلمنجارو وهو عالٍ تكلله الثلوج ويجوز ان ينمو فيه التفاح والتين والزيتون والفراولة جميعا وغيرهن من أشجار المدنية الكتابية.

وفى فتـــوار

على مقربة من شاطىء النيل الأيسر شمال مدينة بربر مقبرة «أب بشر» وابنته «بشرية»، صالحان وفدا من المغرب فيما زعموا، ذكروا أن «أب بشر» كان قد جاء حَجْرَةَ النيل قبل المغرب وفرطته المركب (هكذا فى لهجة الجعليين أى فاتته المعدية ، وفرطته فصيحة جدا) ، وكانت قريبا ، فصاح بالناس فلم يردوها إليه استصغارا لأمره ، فوضع فروته على الماء ووضع ابنته معه فإذا هما يشقان الماء كاللنش بلا موج ولا تيار ولا اذى كما تفعل اللنشات ، ووصلت المركب وأقبل من فيها على الولى الصالح يتضرعون .

وفى غرب الدامر بوادى أب سلم بيان لأب بشر وابنته بشرية !

هـــذا

وذات يوم حدثنا ناظر مدرسة مدينة « ر » أنه يعطى دروسا فى الدين المقارن (هذه العبارة لا تعجبنى ، ولكن المعاصرين اصطلحوا ترجمة التعبـــير الإنجليـــزى Comparative بقولهم المقارن) وطلب منا أن نحضرها ، أحسبه أرادنا لنحضرها أملا أن يكون فى ذلك هداية لنا على تقدير أننا مسيحيان إفريقيان أنقذهما المبشرون بنور الرب من ظلام وثنية الغابة آمين ، وتصديت فذكرت له أننى أود أن أحدث طلبته عن الإسلام ، فأظهر سرورا عظيمـــا ، وحضَرت الدرس ليلا وعرضت ما حضرته على صاحبى فنصح وراجع ورضى ، وكان الدرس تعريفا بالأسلام وتوضيحا لبعض مايتيسر فهمه للصغار من مزاياه وفضيلة تعاليمه ، وكان الناظر يسمع شديد الانتباه ، أما التلاميذ فقد تتبعوا الدرس أيما تتبع وسألوا

أسئلة تدل على حسن انتباه . وسأل الناظر سؤالا مهذبا لم يخل من خفى تعصب ـ تعصب من يثق بما يقول المستشرقون .

ثم بعد الدرس وانصرافنا لنستريح استراحةقهوة الساعة الحادية عشرة فى حجرة المدرسين أقبل علينا الناظر يشكر لنا ويحمد إلى زملائه درسنا .

وسايرنا ذات مساء بعد دعوة شاى دعاناها ليودعنا بها . وقال وهو يسايرنا ببحة رياسة وكهولتها « إذن فأنتما مسلمـــان . ينبغى أن تكونا مسلمين عريضى فكر جدا » . وتنازعنا عبارات المجاملة. وكان مما دعاه أن يستنتج ما استنتجه فيما زعم حضورنا اجتماع صلاتهم صباحا . إذ كان يظن هذا ممنوعا عند المسلمين ولم يكن قرأ السيرة وأن الرسول صلى الله عليه وسلم دخل بيت المِدْراس على اليهود . ولم نذكر له هذا إذ كرهنا أن نفيض معه فى هذا الباب . ثم بعد سكوت ونحن نتَسَايَرُ كرر العبارة : « ينبغى أن تكونا مسـلمين عريضى فكـــر جــــدا Very broad minded Muslims حسرته أننا مسلمان عريضا فكر لايكاد يخفيها . إذ كان عنده أن المسلمـــــين فَنَطِيقِيُون ـ أى متعصبـــــون غـــلاة بأيديهم السيوف والحراب يصيحون بوحشية:« الله أكبر » ليقتلوا حمل الله المسيحيين الذين بأيديهم المدافع الرشاشة ، كما فعلوا حال كونهم الدراويش بالجنرال القديس غـــوردون الذى أدرك ثأره اللورد كتشنر اوف خرطوم بصيرورة الخاء كافا .

ثم انتبه من الحسرة ليجاملنا . فقد كان رجلا حسن البنية. أطول من المربوع الذى إلى القِصَرِ ، صبيح الوجه ، وجيهه ، وخـــط فودَيْه الشيب وجاوزهما ، فى عينيه بريق ذكاء حطمه مر التجارب

والسنون وحذرُ الكياسة الإدارية ، فقال « أنتم طبعا عواطفكم مع العرب » يشير إلى قضية فلسطين ، فلما أجبنا أن نعم قال وهو يجاملنا أنا كتبت كتابا حللت به مشكلة فلسطين وأنصفت العرب، كل الحلول هناك ، لو يرجع اليها المسئولون أغنتهم ، وقد بعثت بنسخة إلى وزارة الخارجية ، ثم ودعنا ، واحسبه قال : لقد كان سرورا عظيما لقاء مسلمين عريضى فكر مثلكما ،

ثم لا أدرى إن كان بدا له أن عسى أن يكون عرض فكرنا من حسنات الحكم البريطانى ، أم عسى أن يكون فيه انتصار لتعاليم المسيحية السمحاء آخر الأمر :

ومن يغترِبْ يَحْسِبْ عدُوًّا صديقه
ومن لا يكرِّم نفسه لا يُكرَّم
ومن يوفِ لا يُذْمَم ومن يُهْدَ قلبه
إلى مطمئن البرِّ لا يتجمجم
ومن هاب أسباب المنايا ينلنه
وإن يرق أسباب السماء بسلم
وكائن ترى من صامتٍ لك معجبٍ
زيادته أو نقصه فى التكلم
لسان الفتى نصفٌ ونصفٌ فؤاده
فلم يبق إلا صورةُ اللحم والدم

* * * * *

إبريــل ١٩٤٦

أو مارس

ندّ عنك التأريخ

شكونا إلى الأستاذة مرة أُخرى ؛ هذا فى فبراير ، وأحمدنا إليها أيام مدينة « ر » ؛ فرأت أن ترسلنا إلى مدرسة أخرى نقيم بها أياما عسى أن نحمدها . وكان التلاميذ هنا أصغر سنا من ضرب تلاميذ المدارس الوسطى عندنا . بل أعمارهم أقرب إلى أعمار تلاميــذ الأوليّات فى العاصمة .

لقد كان تلاميذ الكتاب إذ كنا بمقرات رجالا . ولم يك من صغار غيرى وغير آخر أو آخرين . هذا أقوله على ســبيل الاحتراز . وأذكر أول مقدمنا مقرات منقولا أبى إليها من كسلا كيف ملأ القوم بيتنا بتمر من « المِشَرِق » (١) وقِرَب العجوة من « ودلقّاى » ، وقفف ملاء من « ودخطيب » الذى دُمِّس بالرماد ليمنعه من السوس . و « ودلقاى » و « ود خطيب » أجودا أصناف تمر السودان بلا ريب . أصلهما من المدينة فيما ذكر لى . وفى « ودلقاى » قــال الشاعر « ود الكليباوى » يذكر الشاى والسكر :

ما بيعجبنى ودلقــاى

بادور التقلوا له الشاى (٢)

أى « ود لقاى » لايعجبنى ولكن يعجبنى السكر الذى يصنع له الشــاى ثقيلا .

---

(١) المشرق ينطقونهــا بكسر الميم اى التمر الــذى اصله المشرق كانهم يريدون اسم الفاعل « المشرق » من اشرق فيقلبون الضمة كسرة وهذا فى العامية كثير.

(٢) بادور ، الباء والفعل المضارع ادور اى اريد . واحسب الباء اصلها من بداه يبوه فهى بقية فعل وليست حرفا . وتنطقها بدور بدون الف .

« ولود الكليباوى » فى الشاى أصناف أشعار . قال :

أنا ان جنّيتَ موقِلنبه
شاياً مو ورق حِلِنبَه
بادوره معايا فى التِربَه (١)

أى إن جننت فليس ذلك بما يستغرب . الشاى الذى ليس بورق حلبة ، أريده معى فى التربة أى القبر ، أى كما قال أبومحجن : ــ

إذا متُّ فادفنى إلى جنبِ كَرْمةٍ
يُرَوِّى مُشاشى بَعْدَ مَوتى عروقها

وكان قد نَدَرَ السكرْ عام ١٩٣٠ . أحسب أن الحكومة همت برفع سعر السكر فاختفى من الدكاكين واستعمل الموظفون الحلوى . فقال « ود الكيباوى » :

ما تصــابح الجار يا حمــار
ما تســويها الحيــلة نــار
ما تصــابح الجــار القريب
تسمــع الكع تطــلب الشيب

أى لاتزر جارك مبكرا فى الصباح أيها الحمار تزعم أنك تريد منه نارا وماتريد إلا أن تشاركه فى شاى الصبح . لاتزر جارك القريب أول الصباح لمجرد سماعك صوت رأس السكر يكسر (كَع كَعْ) فتطمع فى أن تشرب كوب الشاى «شِيبْ شِيبْ» قال ذو الرمة: ــ

تداعين باسم الشّيب فى مُتَثَلّم   جوانبُه من بَصرةٍ وسِلام

(١) التربة ينطقها الرباطاب بكسر التاء والابيات بلهجتهم .
(٢) بعده : انت ياخوى امرك عجيب. انت ماعندك تراتيب. ماتروح الدكان تجيب.

وقوله «تريد منه نارا» يشير إلى مايكون أو ماكان يكون فى القرى، يستوقد أهل هذه الدار أهل تلك ، هل عندكم نار ؟ فيعطونهم عودا أو جمرات . ومن أكثر ما تستوقد أو كانت تستوقد به النار بعر البقر ، لأنه يحتفظ بالنار زمنا طويلا وله جدار صليب . وكان «م» ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ تمتاما فى صباه . أذكره كأنى أراه عيانا . ولم يكن عمرى ، فيما قيل لى إذ أشير إلى هذا ، أكثر من ثلاث أو أربع على أقصى تقدير . كان ـ أراه الآن شبحا ـ يحمل البعرة ويقول ... ويتمتم ويبكى، هذه الصورة العالقة . أحسبهم كانوا يغايظونه وهم يعلمون مايريد . فتزداد تمتمته ويبكى . أرى شفتيه وأنفه وهو ينخج ويذن أنفه من البكاء . وتختلط صورته فى ذهنى بصورة «حلبية» (١) كانت تستجدى كعادة «الحَلَب» .(٢) أراها الآن وبيدها صحن فيه كسرة «ومُلاح» أخضر ، أى إدام من ورق اللوبياء أو الخضرة (هذا كان اسمها واسمها الآن الملوخية) وكانت تحرك الصحن ليعم الملاح الكسرة . الكسرة فى الوسط والملاح فى جانب . وهى تريده ليستدير حول الكسرة . لعله ملاح ويكة . لا أرى الآن إلا الصحن وحدقتيها تتفرسان فيه جشعتين ولعلمـــا أرى فمـــا . . . . هــــذا ،

ومما أهداه إلينا أهل مقرات طعام أيام متواليات . وكانوا يطبخون بزيت السمسم وفيه مرارة ، فيجعلون فيه شيئا من السكر . وأما سمنهم البلدى فكان نادرا جدا ويسلأونه مع البصل ويعلفـون

(١) حلبية : غجرية ونورية بلهجة السودان .

(٢) حلب : غجريون او نوريون كان اشتقاقها من قولهم احلبوا اى اجتمعوا من كل مكان كان معنى الحلب القوم الاخلاط .

المعزى نوى التمر . أذكر شيخة كانت ترضخه . وعلقت هـذه الصورة فى ذهنى . ثم قرأت بيت الحماسى : ــ

كمـا تَطَايَحَ عن مِرْضاخِهِ العَجَمْ

فبرزت معالم النوى المتطاير واضحة جدا .

كان أهل مقرات حق كرام ، ونما لنا معهم ود ، وكانت تجمعنا بهم صلة رحـم .

وحدأة مقرات كاسرة .

أذكر إذ أُرسِلت لأحضر لحما . وكان اللحم قلما يجزر «بالسيال» حيث كنا نسكن . رعى الله أهل « السيال » وشيخها الكريم السمح وأسرته أهل المبرة واليمن . وحملت ما أرسلت لأحضره من اللحم، لا أرى فيم حملته . وإذا بحدأة .....

(وأهل مقرات لايقولون «الحِدَيّة» ولكن يقولون «السرتوية»)

..... تلطمنى بجناحيها لطمات . وأصررت على ألا أستسلم . وسقط اللحم مرارا ، وقاتلت عليه الحدأة حتى أوصلته .

واصطاد أناس فرس البحـر (ويسمونه القلوبة بمقرات) بحفر احتفروها له وبعثوا إلينا بقطعة منه . وفى كتاب الشيخ عمر اسحق أو بابكر بدرى إن لحمه تفه لا يأكله إلا الصيادون . ووضعت القطعة فى « الحلة » . وأوقدت النار . وطال الأمد والقطعة تبزبز بالفقاقيع والماء لا يفور ، بل يتزايد وهو كالبارد أو الفاتر ، الله أعلم أى ذلك كان . وعلمنا بعد دهر ــ وقد ألقينا القطعة فى الدمنة آنذاك (١) ــ

---

(١) الدمنة : حيث تلقى اوساخ الدار .

أن لحم فرس البحر ينشف فى الهواء حتى يفقد الماء • ثم إذا طبخ بعد ذلك كان جيدا •

واهل مقرات يسمون اللوبياء العفن « التقسّيل » ويسمون جابية الساقية « الأقنين » ويسمون قطيع البيت (١) التدكيق

ويسمون النفاج (٢) « السام » •

ومقرات جزيرة كبيرة • وغاظنى بعد دهر أننى وجدت فى كراسات الجغرافيا : الجزيرة قطعة أرض يحيط بها الماء من جميع الجهات مثل جزيرة توتى بالخرطوم ؛ لماذا لايستشهدون بمقرات ؟ ولم أكن قد سمعت بتوتي ؛ وماكان يخيل إلى أن جزيرة تكون أكبر من مقرات أو أشهر • ولا ريب أن توتي أصغر منها • وعسى أن تكون تصى قد كرهت أثرة العاصمة وافتئاتها على الأقاليم حتى فى كراسات الجغرافيا • وشهرة توتى لا تخفى وقد تنسب إليها الخرطوم فيقال خرطوم توتى وقد ذكرها يونس بحرى من مذياع برلين حين ثارت على حكومة بريطانيا •

هـــذا ،

وإنما جر إلى هذا الاستطراد موازنة أعمار التلاميذ فيما بين بلادنا وبلاد الإنجليز • وأعود إلى قصة المدرسة التى بها بدأت •

كان ناظر المدرسة طويلا أقرب إلى المشذّب أو هو المشذّب • وكان صاحبى يراه من أصحاب الغباوة وكنت أظنه يظلمه • بل

---

(١) القطيع : كان لازما فى البناء السودانى وهو مخزن صغير مظلم يقتطع فى آخر البيت بجدار يوصل بين الجدارين الطويلين ويكون له بويب •

(٢) النفاج : الباب الصغير يصل بين بيتين متجاورين والسام هو الحوش • وانشدوا : شتيل الشرق ال علوا له سامه

* أعجبني خاصة ساعة أراني القطار الذى يلعب به التلاميذ. فقد كان أيسر جانبا من مؤلف حلول مشكلة فلسطين . وقطار التلاميذ كان رائعا ، إلا أن صاحبي لم تكن تعجبه الفرجة على دور الصناعة هازلا أو جادا . وكان مدرس التاريخ يدرس فترة هنرى الخامس من كتاب ضخم كان لكل تلميذ منه نسخة . وكانوا يقرأون الواحد بعد الآخر كما فى حصص المطالعة . وبعضهم كان يرسم خرط مواضع القتال. فمن كانوا يرسمون لم يكونوا يشتركون فى المطالعة ومن كانوا يطالعون كان أمرهم إلى أن يرسموا ويكتبوا بعد الفراغ من صفحة أو صفحتين تقرآن . وكان المدرس دمثا ، لين العريكة، كثير الصمت ، لو غيره كان مكانه ، يفعل ما يفعله لا ينقص ولا يزيد ، لكان الدرس ثقيل الظل ، بطىء الحركة ، قليل الجدوى . ولكن كان له أخذ" غريب بنفوس التلاميذ ، بعض مصدره لاريب تعودهم أسلوبه ، وعلمهم عطفه ورقته عليهم ، وأكثر مصدره خبرته العميقة الأصيلة ، وملكته الموهوبة فى التدريس . قد كان لا يبالى بخطا (هربارت) الخمس أو كان كأنه لايبالى . ولا يشك المرء أن درسه ناجح نافذ إلى الأفئدة .

وكنا نأوى إلى فندق أعدت لنا فيه غرفة بسريرين . وقال لنا رب الفندق : هذه غرفة الأكل ، وهذا هو الحمام ، وهذه هى غرفة الجلوس ؛ إلا أنها لاتلائمكم لأنها غير دافئة . أنتم تحبون الشمس والجو الحار . قليلا ما تظهر الشمس عندنا . هنا حجرة صغيرة تلائمكما ، دافئة لأن ههنا موقد غاز . هكذا . دافئة جدا. ومنضدة للكتابة . ماتحتاجون إليه... وشكرنا له صفاقته إذ لم يخف عنا أنه أراد ليعزلنا عن الجالسين بحجرة الجلوس. ولعله لو كان وجد سبيله

إلى أن يعزلنا عن حجرة الأكل لفعل • وكان عدد المقيمين بالفندق غير حق كبير•إذ كان آنئذ أول الربيع•وكان الفندق ريفيا يقصده هواة الطيور والمشى والراحة فى الريف•كانوا كلهم فوق الكهولة رجالا ونساء • وكانوا يتحدثون فيما ذكر لى صاحبى إذ كان دقيق الملاحظة وانتبه إلى أحاديثهم ولم أفعل ، عن طيور المنطقة ونباتها• وكان بقاؤهم فى غرفة الأكل يتحدثون أكثر من اختلافهم إلى غرفة الجلوس • وكان بقاؤنا فى غرفة جلوسنا أكثر من بقائنا فى غرفة الأكل أو فى غيرها • وكان ربيعا باردا كأبرد مايكون شهر أبريل• وكنا المساء نخرج قليلا • فرأينا « بَبّاً » (والبب اختصار « ببلك هاوس » Public House « وحان » لا تصلح ترجمة له) • قال صاحبى : هذا من ضرب سيتجهمنا لفراهة منظره ومن تواضع لله رفعه • وأصررت على أن نرى داخله فدخلنا • فإذا جو بارد • وهو خال أو كالخالى • فجزعنا من سوء خُلُوّ الترحيب• ومضينا إلى آخر كنا نرى ظلال الأشخاص وراء زجاجه • و «الببّات» أبدا ذات زجاج سميك يضرب إلى البرتقالية يحجب ما وراءه • وعلمنا من مرآنا الاشباح أنه حيٌّ مزدحم • ودخلنا واحسسنا دفء الجماعة • وتحدث إلينا أحدهما •• تاجر متجول، سرعان ما طابت العلاقة بينه وبيننا وكان هو وصاحبى يتبادلان إعجابا شديدا : كلاهما أعجبه من الآخر دقة ملاحظته وعمق معرفته الناس • ولا أدرى كيف آخر الأمر صير بنا إلى قراءة الكفوف • الخط الطويل للحياة ، وكل من تقرأ كفه عمره طويل وتعتريه أمراض يتغلب عليها ، والتى فى يدها خاتم زواج يقال لها عن المال والسعادة ؛ نعم بكل تأكيد،هنا خط النصر النهائى والتغلب

على صعاب العواطف ونيل المراد . وتكون المتحدث إليها أحسن نصفيها الذى قد ذهب وقد طال تعنيسها . وتعطو شابة حقا تبتسم وتعلم أن قراءة الكف عسى ألا تخلو من مؤانسة غزلة .

« وهل هن والفتيان الا شقائق »

وأشرقت الشمس واستشرى منظر الخضرة استشراء كل منه البصر. ثم غام الجو فى اليوم التالى وكان عطلة آخر الأسبوع . وقبعنا طوال السبت والأحد إلى المساء فى غريفة جلوسنا نستدفىء وأنا أنشد صاحبى : —

أقول وطال فى فعنليل يومى وأسلنى الملال إلى الضنان
وقد حجب النهار الضوء عنى وحز البرد أطراف البنان

وهى كلمة . ويوم الإثنين فرغنا من عملنا قبل الغداء بمدة ومضينا إلى غريفتنا . وعدنا إليها بعد الغداء والمطر يهمى طلا رتيبا .وماهو إلا أن جاء رب الفندق ينظر إلينا نظرات تنذر بهجوم . « لماذا لا تستعملون غرفة الجلوس؟» ونحن نعلم لماذا.لأنا — قلنا — نحب هذه الحجرة وتعودنا عليها وهى دافئة . قال كأنه يوشك أن يكون مغضبا : « ولكن دفئها يكلف فلوسْ (قف بالسكون على لهجة ربيعة لتجيىء بجرس شبيه بجرس كلمة Money كما وقف عليها صاحب الفندق) . ولما فهمنا جزعه من استهلاكنا الغاز والدراهم حتى هان عليه أن نكون بالصالون ، صرنا إلى الرضا بما رفعنا إليه من درجاته . وأطفأ الغاز . وجلسنا للقهوة بالصالون. وقال إنه سيوقد الفحم بعد قليل .

وفى العصر لما أوقد الفحم وجلسنا للشاى ؛ قال لاشىء ألطف من

نار الفحم،ستدفأ الغرفة عما قليل،إبنة زوجتى احتفال عيدميلادها غدا ، يمكنكما أن تحضرا فاحضرا . وحاولنا اعتذارا فقال : ندعوكما ، سيكون رقص ، طبعا تعرفونه جيدا . وأنى له أن يعلم أن أولاد العرب بالسودان لا يرقصون ، وأنه يوشك من رقص أن يظن يعمل عمل أهل القريات.على أن أصنافاً من الرَّهْز قد جعلت تدب بين طبقات فى البنادر منذ ظهور « التم تم » والعياذ بالله من الردة بعد إيمان .. وأحضرنا زجاجة هدية له تنوب عن حضورنا احتفال ابنة زوجته . وطابت لنا نفسه فسألنا كيف لم نمتعض من الغريفة الصغيرة كما امتعض من قبل أحد الهند غربيين West Indians واتهم بأن فيها تمييزا عنصريا . وتعجبنا من سؤاله ومن أن يدور مثل هذا الاتهام بخلد أحد . وهل كمثل دفئها شىء ؟

ومن يَعْصِ أطرافَ الزِّجاج فإنه
يطيعُ العوالى رُكِّبَتْ كلَّ لهذم

ومن لم يصانع فى أمورٍ كثيرة
يُضَرَّس بأنيابٍ ويوطأْ بمنسم

* * * * *

ذكرى ١٩٤٦ — فى — ١٩٦٤

ذهبا إلى مسز جونز بكردف من مدن ولز الجنوبية . وذات يوم إذ يسيران فى الشارع الكبير أمام المحطة الكبيرة رأيا شتى وجوه ملونة ألوانا يعهدانها . واستمعا فإذا ألسُنٌ عربية وإذا القوم

صوماليون . فتحدثا إليهم وكانا يعلمان أن فى كردف سودانيا ووصفوا لهما منزله.فسارا وراء حيث المحطة ووراء رصيف الخط الحديدى ، فى مدينة كردف أخرى ليس لمنازلها بهجة كردف الأولى . فى الأولى حيث مسز جونز منازل ذات ستائر وحدائق صغيرة أمامها ، يحيط بكل حديقة صريف أخضر مقصوص ، وراء جدار أقصر منه ، وهو ثخين ، أى الصريف الأخضر ، ريان . ودونه ميدان صغير مقصوص الحشيش . فى أركانه أزهار وجبليات صغار.وفى الجانب الخلفى من المنزل حديقة أخرى كبيرة ذات ميدان حشيش أكبر ، تراها إن كنت فى المنزل ، أو مر بك القطار فيما بين المنازل .

وحيث المسز جونز ، المنازل نظيفة المظهر : كأن المطر الذى يهطل كل يوم لا يفعل ذلك إلا ليغسلها . والطوب الاحمر غالب وغيره من الألوان واضحة عسى أن يكون فى بعضها عَرق العِتق.

أما فى كردف هذه التى وراء الرصيف كأن المنازل كلها من الأسمنت . ولاخضرة فيها ؛ كل شىء مرصوف بالأسمنت . وفى بعض الطرقات رسم بالطباشير . هنا سود . إفريقيون أو هنّد غربيون ، يلعبون النفنزج . قال العجاج يصف الظليم أى ذكر النعام :

كالحبشىّ التفّ أو تسبّجا
في شَمْلةٍ وذات زِفْتٍ عوهجا

حتى قال :

فَهُنّ يَعْكُفْنَ به إذا حجا
عَكْفَ النبيطِ يلعبون النفنزجا

وذات الزف العوهج هى النعامة. والزف مالان من الريش. والعوهج البيضاء . والكلام مربوط بآخر قبله فارجع إليه أن شئت فى مجموعة أراجيز العرب للبكرى .

وفَنْزَجٌ نبيط كردف مربعات يرمون عليها الحجارة فيصيبون ويخطئون ، ويكون ذلك قماراً بينهم فى النهار المبصر فى بلد يمنع القمار فى الحانات وكأنه لايبالى مايصنع هؤلاء أو ما لا يصنعون.

ودلتهما منظر الإفريقيين والهند غريبين على أنهما فى حىّ السودانى الذى خبّرا عنه بعد أن كاد يخالطهما أنهما قد أخطأا الوصف الذى وصف لهما . وداخلهما الجدّ الذى يكون عند مقاربة الاهتداء . فأسرعا خطاهما . هما كغيرهما فى هذا المكان المختلط المختلف ألوان الناس وسحناتهم ، إلا هذه المعاطف الجيدة عليهما والملابس المحتشمة المحترمة ومشية وسمت يدل على غير بحاريّين ، كقول عمر أبى ربيعة : —

رأتْ رَجُلاً أَمَّا إذا الشَّمْسُ عارضت
فيَضْحَى وأمـــا بالعشىِّ فَيَخْصَرْ
قليـــلاً عـــلى ظَهْـــرِ المَطِيَّةِ ظِلُّه
ســوى ما نَفَى عنــــه الرِّداءُ المحبَّرُ

فدلَّ على سَرِىٍّ قرشى بقوله الرِّداء المُحَبَّر ، إذ قد جعلها تفطن لردائه وهو أشعث أغبر ضئيل الظل على ظهر الناقة ، كما أنه هو نفسه قوىّ الشعور بوجود هذا الرداء المُحَبَّر .

وإذا ببناءٍ ذى نقش ما على أعلاه أبيض ، وشَيَّحٌ حَوْلَه كث

اللحية ، ضخم العمامة كأن عليه مشاجب من نياب ، عباءات فوقهن عباءات . السلام عليكم وعليكم السلام ورحمة الملك العلام . أهذا جامع وإمام ؟ نعم ورب الكعبة التى قيل إن شارل مارتيل هدمها بحديد فرسانه فيما بين تور وبواتييه فى وادى اللوار .
ولاح آخر ذو طربوش ، حليق ناعم كالسحلية (١) ولعله أضرى من الأصلة التى تصطاد الظباء، وأدرب بمعاملة أصناف الخشونة البشرية من أبطال الأفلام الأمريكية ، مثل كونراد فيدت فى كسبلانكا .

قالوا إن الأصلة تعمد إلى شجرة كالطلحة لها برم أصفر كاس . البرم جمع برمة بفتحتين وهى زهرة الطلح . والطلح من أشجار العضاه كالسنط والسدر والسلم والسمر وهلم جرا

فتصعد الأصلة الشجرة حتى تصل أعلاها ثم تهز بها هزا فيتساقط البرم الأصفر على الأرض . فيجىء الظبى حذرا فلا يرى شيئا . والبرم يعجبه . فإذا اطمأن انحنى يأكل . والظبى شره جدا وشرس جدا فيما بلغنى . أحسبه شرسا من أجل أنه مليح . وكل مليح « ملاح » يأكله الهوى أو تأكله البطون . والملاح بضم الميم هو إدام الطعام باللهجة السودانية . وقال الآخر :

فلو كنت عذرى العلاقة لم تكن
بطينا وأنساك الهوى كثرة الأكل

هذا

وبمجرد انهماك الظبى فى أكل البرم تنحدر الأصلة فى لاصوت ،

---

(١) السحلية ضرب من العظاء وهى من أصناف الضباب حسنة اللون .

وفى صبر بطىء يَرْمُق غرضا يريد بلوغه لايحيد عنه . فإذا بلغت أصل جذع الشجرة أخذت تزحف فى لاصوت وهذا أعسر عليها، وفى بطء مرهق وصبر قاس لاترى غير الظبى الغافل . حتى إذا صارت إليه المسكين وثبت وثبة نَهِمٍ مُغْرَمٍ حاقد لئيم غشوم عارم فعضَّت . ووضعت قرنيها فى أنفه . والتفت حوله فى سرعة العفريت عمياء بلذة القرم الهوجاء

وبالماء قيس أبو عامرٍ يراقبها ساعةً أن تصوما

هذا البيت يقوله ربيعة بن مقروم الضبى يصف حال الصائد المتربص ، يراقب الحمر الواردة أن تقف ساعةً ليرميها .

وههنا يوجد أيضا صائد مثل قيس أبى عامر ، غير بعيد ، يرقب الأصلة أن تنهمك فى الصيد . وهى إذا انهمكت عملت أشياء كثيرة معا : تعض وتضغط على الأنف بالقرنين وتضغط على الأضلاع ، وتمط الظبية مطا لكى تقدر على ازدرادها فى يُسْر من بَعْد . وتكون كأنها مجنونة أو مغمى عليها حينئذ لاتحس حولها شيئا . والظبية فى أشد الألم حتى تموت .

فإذا انهمكت الأصلة فى الصيد جاء قيس بحربته وحباله فقضى عليها وسلخها فباع جلدها وأكل الظبى وادخر لحمه وباع جلده وفى الشرق الأقصى يأكلون لحم الأصلة أيضا . ومن الناس من يأكل الثعبان .

ومن الثعابين مايكون طويلا ضخما قاهرا كأنه أصلة.ونحو هذا كثير فى أرض النيل ، ولايتعدى على أحدٍ ولا يهاب أحدا . يقال أخذت فتاة فأسها وقصت أثره تريد قتله وله كشيش ، وهى تراقبه

وتسعى وراءه . حتى إذا بلغ موضعا منه يستدير إلى حيث كــان يختبىء التفت اليها برأس كرأس العتود ورمقها بنــظرة فكمتت وبيدها فأسها . ثم صاحت إلى عمها وكان غير بعيد . هذا الثعبان كريه تعال يا عمى فاقتله .... ولم يزد العم على أن قال دعيه يابنية هذا « هام » لايقتل ولايقدر أحد على قتله . فانصرفت . والهام هو الثعبان الذى أصله من الجن وفى قصة أبى زيد :

عضّانى هــام أب همايـــم

ضربتــه بيــدى أم ختايــم

خليت سمه فوق المــا عايــم

أى عضنى ثعبان شيطانى فضربته بيدى التى فيها الخواتم فقتلتــه فسمه عائم على الماء . لا أدرى قال هذا مرعى أو يحيى يخاطــب أبا زيــد سلامــة .

ولما ذهبنا إلى أرضنا بالنيل الأزرق بالسيارة ، منذ أسابيــع نزورها أديبا تونسيا كبيرا ، رأينا ونحن على وشك العودة ، بل قد تحركت السيارة،غَبَرَةَ ثعبان أسود طويل زحف متموجا من فوق إلى تحت نحو النهر . وهممت أو أوطئه السيارة ولا أدرى بعد لم لم أفعل . وقص علىّ أخ كريم أنهم عسكروا بجبل موية فاختاروا رابية للمعسكر وكان ذلك منهم خطئا ، لأن الرابية فى مثل ذلك المكــان إنما تكون قد نشأت من تراكم التراب على خرائب أبنية قديمة من الدهر السالف . ومثل تلك تأوى إليها الثعابين ويكون

يطن الوادى أفضل للمبيت والمقيل منها . ولما جلسوا المغرب ، قال صديقى ، على كراسى الرحلة ، إذا برءوس الثعابين من شتى الأجحار . وما هو إلا أن قضوا من الليل جزءا صالحا ممسكين ببنادقهم كلما ارتفع رأس ثعبان ألحقوه طلقة . وخافوا أن يتهمهم عمال المعسكر بالجبن . فلم يفارقوا رابيتهم ليلتهم تلك . وضربوا ثعبانا فانثال مع موته بيضه : كانت أنثى حاملة . وزعم لى أحد مدرسى العلوم الطبيعية — وما أشبه أن تكون مقالته من قبيل الخرافات — أن بين رءوس الثعابين والبنادق ذات المواسير الطويلة جاذبية شديدة بحيث لايخطىء مصوب البندقية إلى رأس الثعبان أبدا . وهذا غاية الجبن منه البائس .

وقوز الدامر الكبير الذى غربيه الجامع القديم كأنه قام على أنقاض مدينة هليوبوليس المرويين القديمة . إذ لا يعقل أن يكون قوز رمل طبيعى التكوين . وفيه من الثعابين ما يسكن فى هذا الضرب من أقواز الخرائب ، ضرب أسود قصير ثخين تستخرجه الدجاجة وأخوتها فينقدنه بمناقيرهن حتى يموت . والدجاج من الطير المسلم . قال جرير :

لمـا تـغـرَّبت بالدَّيرَينِ هـيَّجنى
صَوتُ الدَّجاج وقَرْعٌ بالنواقيس

وقرع النوقيس أشبه بالديرين إلا أن جريرا لإسلامه كان أحب إليه صوت الدجاج . وقال أبو نواس :

ذكر الصبوحَ بسُحرةٍ فارتاحـا
وأملّـه ديـك الصباح صياحـا

وإنما أملته لأنه ذكره الصلاة وهو يهم بعصيان . ولو كان جاهليا

لهشٌ له كالذى فعل لبيد حيث قال :

بادرت حاجتـها الدجاجَ بسُحرَةٍ
لأعـلَّ منها حـين هـبَّ نيامهـا

هلو ترنك صـوت حلو .. قريـة كـذا ... ماذا ؟ .. اطلبى المدينة الفلانية تخبرك بها ، من فضلك يا آنسة بسرعة . حاضر، ضرورى . شكرا ... العفو .. رقم تلفونك .. كذا كذا ... ضع السماعة .

ومر ربع ساعة وقال : لماذا لم تجىء النمرة ، أنظر مرة أخرى، أطلبها . وقام صديقنا ليطلبها ورفع السماعة.بز بز خشخشة..

الحمد لله التلفون خسران ... اسمع ...

ماذا خسره ؟ ... لا أدرى ... ننتظر .

ورفع صديقنا السماعة بعد مدة . لقد صلح التلفون . يا آنسـة طلبنا منك نمرة كذا ... حاضر ...

.. بز بز بز ... خسران .. ثم خمس دقائق ورفع السماعة ، صلح التلفون ، يا آنسة طلبنا منك رقم كذا ... ماذا ؟ قرية قرب مدينة كذا ... حدثتك من قبل . لم تحدثنى . نحن هنا ست بنات . ياللضيعة ، لسان حالهما . حاضر بسرعة . شكرا . آسف. مادام الأسف . ثم صلاة المغرب أو لعلها العصر

إن الصلاة أربـع وأربـعُ
ثـم ثلاث بعدهـن أربـع
ثـم صلاة الصبح لا تُضيِّعُ

وجميع الصلوات بكردف ضائعة إلا من رحم ربك وإلا صلاة العيدين والجمعة وبعض الخمس بين هؤلاء المسلمين الملونين القاطنين وراء الرصيف . ودلهما الأملس الوجه على شارع يؤدى إلى الشارع الذى كان فى مكان غير بعيد من بيت السودانى واسألوا الدكان الذى قرب الـ ... هل قال ذلك ؟

ونقرا البابَ أو ضغطا زره وجاء رجل كان قوى البنية قد انهار وهو يتماسك ببقية من دارس فتوته ، وكان ط.ص. محسيا من أهل أقاصى ما بين عبرى وكرمة . ولاقاهما بترحاب عريض عميق صادق . طال عهده بسودانى .

وكان وحده . ولابد من العروض . ثم خرج وعاد . ولابد من الغداء. دمعة ودجاج وخضار. « فين رايحين ؟ تتغدوا هنا ... جيسس كرايس » تعلم هذا التعجب من البحارة الأفرنج . ونسب لهما نفسه وقال إنه يفهم أولاده بنسبهم . جيسس كرايس ... ثم يسعل . إنه مريض حقا . أتتم يا أولاد مسلمين محس سودانيين.. اتو فاهمين جيسس كرايس . وجاء الأولاد . ولدان وبنت. كلهم كأبيهم صباحة إذ لاشك أن أباهم كان جميلا فى روق شبابه وأراهما صورته ليؤكد ذلك. ما أشد شعوره بذهاب قوته وشبابه.

يا لهف نفسى على الشباب ولم
أفقد به إذ فقدته أمَمَا
إذ أسحب الرَّيْط والمروط إلى
أدنى تجارى وأنفض اللِّمَما

وتذكر أيام كان ابن العشرين وكيف خرج من دياره مغامرا وهو فتى دون ذلك . وقال : لى تسع عشرة سنة فى هذا البلد. لقد حدث

أيام كنت شابا . وأخذ يقص ولايكاد يتذكر ولا تستقيم له اللغة لا عربيتها ولا إنجليزيتها . ونهض بهيكل جسمه العظيم ليصنع لهما الطعام . وسألا الأولاد فقالوا نحن « ولش » أى ولزيون . ولأهل « ولز » وطنية يتعصبون لها إزاء الوطنية الانجليزية وهم فى هذا كأهل اسكتلندا أو أشد .

وقال ط.ص. جيمس كرايس . انتم مش ولش . قولوا نحن برابرة محس سودان .

وحدثهما أنه يفهمهم ذلك كل يوم . وسألا الأولاد ، فكانوا يعرفون شيئا من العربية قرأوه على إمام الجامع وأقرأهم من القرآن . هم ولش ومسلمون . يعلمون انهم مسلمون . لا إله إلا الله محمد رسول الله ، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم .. لا بهذه الفصاحة طبعا ... ولكن كلمات الإسلام والعقيدة هذا عندهم بلا ريب ، مع أن الاسماء عند الأب عربية ، وعند الأم ــ واسم الام هو الغالب ــ إنجليزية . والبنت أعرف بالعربية . والمجموعة المسلمة بكردف كأنها أحرص على تثبيت البنات فى العربية والإسلام ، فى الإسلام والعربية . جيمس كرايس عندنا هنا جامع وشيخ ومأذون والبوليس يكتب فى الدفتر .

ونجز الطعام . دمعة ودجاج ولحم ورغيف وشطة وسلطة على الطريقة البلدية وشاى . كلوا ... وكرم بلدى بكل أبعاده .

ولم يسألاه عن ربة البيت ... ولكن أخبرهما أنها ذهبت إلى والديها بمنشستر . وأصر أن يبقيا إلى العشاء . وحادث زوجته وقالت إن القطار تأخر فى « كرو » ــ (ملتقى خطوط كبير) ــ وكانت

كهلة لم تضعف ضعفه . وكانت به برة وبأولادها سعيدة وأحسب لم يكن يخلو عيشهم من شدة . ودعاهم فى الغد وكانوا فرحين حزينين ... الأولاد والأم والأب من بلاد المحس أو السكوت أو كرمة أو أرض الحجر . مكان ما بين الشلالين الثانى والثالث . إن أهله لم ينسوه.كان وحده هو السودانى فى كردف كما ذكر م.ع. وكان لم يمت بعد . وكان له العرب من صوماليين ويمنيين وغيرهم أهلا . وكان م.ع. يكاتبه ... والآن زاره اثنان من السودان وأكرمهما وباتا فى داره ورأيا ابنته وولديه وأهله . . . واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام .

وأحدهما شهد بعد دهر احتفالا فيه روايات وأغانى هواة من الجالية الأفرنجية بالخرطوم . وكان مما تغنوا به الكلمة الشعبية من أغانى عصر فكتوريا :

ياسيدى الفرّاش ماذا أصنع
أريد أن أذهب لبرمنجهام
أخذونى إلى « كرو »
خذنى إلى لندن ، كأسرع ماتقدر
ياسيدى الفراش
يالى من بنت بلهاء

ورنّت فى أذنه كلمة « كرو » . ليت شعرى ــ قال لنفسه ــ كيف الآن أسرة ط.ص. فى مدينة كردف الميناء ؟

أما ط.ص فقد توفى . وقد زاره قبل موته ابن عم له لحتا من أرضه بين الشلال الثانى والثالث.وقد حضر مأتمه وقام به فى جماعة. جيس كرايس . لقد رأى أولاده حسبه ونسبه قبل أن يموت..

مات سعيدا . وبنته تزوجها عربى مسلم بكردف . وأبناؤه مهرة متعلمون مستوى معيشتهم مضمون .

الا لَيْت شِعْرِى هَلْ أبيتن لَيْلَةً
بجَنْبِ الغَضَى أزجى القلاص النواجيا
فليت الغضى لم يقطع الراكب عرضه
وليت الغضى ماشى الرّكابَ لياليا
لقد كان فى أهل الغضى لو دنا الغضى
مزار ولكن الغضى ليس دانيا
تقول ابنتى لما رأت طول رحلتى
سفارك هذا تاركى لا أباليا
الم ترنى بعتُ الضلالة بالهدى
وأصبحتُ فى جيش ابن عفّان غازيا
وأصبحت فى أرض الاعادى بعدما
أرانى عن أرض الاعادىّ نائيا

* * * * *

سنة ١٩٦٣

ليلة ماطرة بالقصر فاختل نظام الدعوة التى كانت فى الحديقة فإذا القوم فى البهو والحجرات . وإذا بأحدهم يناديه باسمه ، إنه أحد المهمين جدا فى المجتمع الافريقى الآن ، لعله مدير أو وزير ، يذكره جيدا منذ عهد أيام الدراسة فى قلب لندن . وسأله «ع» فإذا هو الآن وزير المالية لبلد كذا ممن استقللن حديثا من أمم

القارة الإفريقية الناهضة . وكان منزل «ن» أعد لإقامة طلبة المستعمرات والمحميات وماكان للسلطان البريطانى عليه ظل.وكانت غرفه نظيفة.ظريفة دافئة بالتدفئة الداخلية . وكان فيه الماء الساخن ليل نهار . وحجرتا الجلوس أبدا فيهما نار الفحم لتشعر المقيمين بالطابع الأنجليزى.ولم يكن الطعام ليوصف بجودة أو قبح إذ كان التموين والنقص فى مواد التأنق فى الطهى ضاربا آنئذ بأطناب . وكانت الخوادم فى حجرة المائدة شواب كواعب نواضج الأنوثة وائقات.وساء المشرف على المنزل كثرة أحاديث الطلبةمعهن وضرب من التآنس جعل يدب . فأصبحوا وقد طردهن جميعا واستبدلهن بعجائز شهربات .

بعض الطلبة من الهند غربيين يلغطون :

اســمع يارجــل

وكلمة رجل كثيرة الورود على ألسن الهند غربيين.آنا يجعلونها فى أول الجملة . وآنا فى نصفها . وأكثر شىء فى آخرها وكأن النون غنة بعد الألف الطويلة الرقيقة التى كأنها فيها إمالة بـين بـين
Listen ma...n مستر هـ . عنصرى يارجل

اسمع يارجل ، مستر هـ . حاسد .

كلمة حاسد هنا ترجمة Jealous أى غيور بمعنى يدل على أن تكون الغيرة حسدا لا حَمِيّة .

هند غربى لإفريقى : (والهند غربيون يعدون انفسهم أرقى مـن الإفريقيين من أجل أنهم أقرب إلى البيض ، قرب طول الجـوار ، جوار ما)

الهند غربى : رأى شباب بياضهن الملتهب يارجل فغار من حديثهن معكـــم يا أولاد

الإفريقى : اسمع يارجل ، مستر هـ • وغده مخه وسخ يارجل • (الإفريقى لايعرف اســتعمال كلمة « رجل » فى آخر الجملـة وأولها ووسطها كما يعرفها الهند غربى ، ويقلده ، وينطقهابخشونة المخارج الإفريقية،لأناللغة الأنجليزية بالنسبة إليه ليست لغة الأم كما هى بالنسبة إلى الهند غربى •)

ـ اسمع يارجل ، مستر هـ • عنده جواسيس يقولون له هؤلاء الأفريقيون يتحدثون مع البنات البيض وهذا لايعجبه •

ـ محزن ذهاب مس م •

علق أحدهم وابتسم الهند غربى وأبدى أسنانا بيضا كثيرة •

ـ محزن ملعون يارجل

ـ والنونات التى فى خدها • حاسد مستر هـ •

ـ عنده شعور بالكبت الجنسى العنصرى

ـ استعمارى يارجل

بعض الأسيويين يوافقون على تهمة العنصرية من غير حماســة إذ عندهم أنهم آريون كالإنجليز والألمان • وعلى هذا يكونون بيضا وإن غشى ألوان جلودهم سواد ، ويكون بياضهم مستترا وجوبا كالضمير فى أكتبْ وقمْ وخلا وعدا • قد كانوا يظنون أن سبب غيظهم من طرد الشواب حرمانهم من فرصة أن يتحدثن إلى مدنيتهم على أنهم كانوا يحسون فى أعماق سريرتهم أن دافع طردهن كان غيرة عنصرية من المستر هـ•لم يكن المقصود بها الإفريقيينوحدهم•

لقد كان يغيظهم جدا أن الأوربيين يحترمونهم فى الكتــب لا فى المعاملة اليومية ، يحترمون أخبار أجدادهم ويحتقرونهم هم . لعلهم لو قد بعث أجدادهم لاحتقروهم أيضا .

كانوا يتحدثون بحذلقة ويقطعون أحاديثهم بالضحك من دون أن يكون ثم أمر يضحك ، يرون أن الضحك مثل النقطة والفصلة والنقطتين فى الجمل المكتوبة ... شىء يستقيم به تركيب المحادثة

ــ هذا طرف الإسفين الدقيق

ــ أسلوب فرِّق تســد .

ــ اللامقاومة فيها أشد مقاومة

ــ والنفاق يجعلهم يخطبون ولا يفعلون

ــ ولكن هناك عامل اقتصادى هام

ــ قه قه قه قه ــ والترباتر كان وحده العقل المفكر فى تلــك المجموعــة

ــ ماتفتكر يارجل ! مستر هـ . عنصرى

ــ عنصرى . هذا حيلة قذرة

وكان «مب» طويلا مهيباجليلا مرفوع الرأس فى ملابسه المسلمة. وكان امرأ يكن فى أعماقه ابتساما عريضا تفشيه نظراته الجزلة وقال

ــ الفتيات اللاتى كن يخدمننا كن شابات وكان شعرهن قويا ثم قال بعد إنصَاتَه أنصَتَهَا من كان يحادثهم

ــ والفتيات اللاتى يخدمننــا الآن عجائز وشــعرهن ضعيف ونجــده فى الطعــام .

وبعد أيام أعيد النظر فى الخوادم فجُعِل بعضهن شبابا وبعضهن غــير شبــاب .

ألاليت الشباب يَعُود يوماً　　فأخبرَهُ بما فعل المشيب

كان والدنا الفقيه عبد الله كثيرا ما يترنم بهذا البيت .

وكانت القيمة عليهن تتصابى وقد مضت عليها أحقاب وأكل الدهر عليها وشرب . وكان لاحدى الفتيات نقرتان فرحتان فى خديها . وعيناها ناعستان ضاحكتان . ولها كفل محكم ناضج .

وكان «مب» يساير «ع» فقال له : كل فتــاة فى لندن بيدهــا حقيبة يد . ولو وُضِعَتْ حقائب أيدى الفتيات كلها فى وسط حديقة « هايد بارك » لصارت تلا عظيما . وأنا لو صعدت على هذا التل لرأيت ميناء سوثهامبتن التى منها أركب السفينة إلى بلدى . بقى كذا يوما للعودة . وبعد شهر يبقى كذا يوما . سأركب الطيارة لأنها سريعة ، وما من الله سيجىء . وبمجرد وصــولى سأتزوج أخرى على التى عندى .

وزار جامعا كانت تتحدث عنه الفتاتان راء وياء ، فقد كــان أزارهما إياه بعض زملائهما المسلمين . وكانت راء قصيرة تلبس بنطلونا . وياء طويلة تلبس فستانا . وقالت راء : «كان موقفا محرجا» وقالت ياء : « كان محرجا جدا .» ثم شرحتا هذا المحرج بأن راء ضحكت لما رأت الجماعة يسجدون . لم أتمالك نفسى من الضحك . متأسفة . ولكن لا يقدر ان يتمالك الانسان نفســه من الضحك (تضحك منى أن رأتنى أحترش) (١) . وأفلام هوليوود مولعــه بعرض منظر السجود فى الطنز (٢) بالمسلمين ، تراه مضــحكا ، تريك المصلين من وراء . ولما عرض منظر سجدة القائد الرومى فى فلم الحرب والسلام أرته من أمام .

(١) الاحتراش اصطياد الضباب والصائد يبرك امام الجحر ويحرك يديه .

(٢) الطنز : السخرية .

فتأمَّل ! ! وكان الإمام ذا لحية كثة وشارب حليق ومعه مساعد له ذو لحية كثة وشارب حليق . وكان الإمام دحداحا قصيرا تلتمع عيناه بذكاء وفكاهة أكسبتها إياه التجربة وطول الجداول ودقة الذهن لا انه فكه حقا ، فقد كان فنطيقيا لاريب فيه.وكان مساعده طويلا ضخما ذا لانصيب من الفكاهة لغباء عينيه ، وكان فنطيقيا أيضا . وتحدث الإمام عن التفسير : « من يهد الله فهو المهتدى ومن يضلل .. إلى آخر الآية » . وعنده أن الوجه هنا : من ينسبه الله إلى الضلال،فرارا من أن يكون الله هو مسبب الضلال،والشاهد «ومازال شربى الراح حتى أضلنى صديقى» أى نسبنى إلى الضلال، لا جعلنى ضالا ؛ بهذا ينبغى التفسير . وكل هذا كأنه اعتذار إلى المستشرقين عما ينتقدون به كتاب الله ، يقولون : كيف يضل الله الخلق ، وكيف يجوز لله أن يمكر ، أو أن يمد لأحد فى الضلالة وهلم جرا . وكتاب الله فى غنى عن أن يعتذر له مسلم لدى متعصبى النصارى والمستشرقين أمثال مرجليوث مثلا وغيرهم من أهل الملل كأننا ما كان يقولون . وغير خاف عليك أن الحديث عن أمثال «مكر الله » و « من يضلل فماله من هاد » ليس لعمر أبيك مرادا به غير الطعن فى الإسلام من طريق الطعن فى الرسول بمراءٍ كمراء من عاصروه بالمدينة أمثال حيى بن أخطب

وفى تعب من يحسد الشمس ضَوءها ويجهد أن يأتى لها بضريب

وآية عَدَمِ صدقه ، وشاهد تعصبه،أنه يفرض أن مسألة حرية الإرادة قد فَرغ منها،فما يُشتَمُّ منه الجبر يدل على ضعف وجمود

واعتذار الإمام الذى ذكرنا « ومازال شربى الراح حتى أضلنى»
إنما هو ضرب من استشعار النقص المقارف الكفر أو الواقع فيه.
والإسلام له فى أمر الذات وصفاتها مذهب معروف

ومنه أن ينظر بالأبصار لكن بلا كيف ولا انحصار

ومن كانت له الذات العلية هدى وأضل وإن رغم أنف مستشرق
وغير مستشرق ، اللهم اجعلنا ممن هديت غير المغضوب عليهم
ولا الضالين .

وإنما كان الإمام ومساعده وصاحب ثالث لهمالم يلقياه يومذاك
جميعا من فرقة معجبة بالمسيحية الغربية فى عدة أمور . منها التبشير
للافريقيين . المبشرون المسيحيون يفعلونه غزوا وفتحا وعقيدة .
وهؤلاء ، أعنى الإمام وفرقته ، يفعلونه ليقنعوا أوربا أنهم متمدنون
يتبعون اسلوبا متمدنا كالكنيسة ، لا الجهاد ، الله أكبر ، كما هو
شائع عن عقلية المسلمين .

وأراد أن يبشر لهما لأنهما إفريقيان . وسألهما عن المهدى الذى
فى السودان هل حقق رسالته . واستفسر بالسؤال.وقال «ع» نعم
فقد هزم الاجانب وقتل هكس وغوردون . وقال الإمام الجدلى :
كلا ، ليس هذا تحقيق رسالة . هذا حرب وعنف . ولكن هل
عاش ليحقق رسالته أم مات؟مات بعدفتح الخرطوم.لم يحقق رسالة.
مات ومولانا المسيح كان على قيد الحياة . ومولانا المسيح قال من
يقوم بدعوى المهدية فى حياتى ويكون كاذبا يموت قبل أن يحقق
رسالته وأنا حى. ومهديكم مات ، ومولانا المسيح حى ، فهذا يدل
على أن مهديته كانت باطلة .

ومولاه المسيح الذى كانعنه يتحدث لا يسبقن إليك أنه سيدنا عيسى بن مريم ، ولكن أحد الكثيرين الذين ادعوا النبوة بعد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم غير مبالين بقوله تعالى : « رسول الله وخاتم النبيين » وقد ذكر منهم أبو العلاء جماعة فى رسالة الغفران فهذا يضاف إليهم .

امتعض « ع » من الطعن فى مهدى السودان ونافح أولا بذكر فضيلة ما قام به من الجهاد.ثم لما رأى الإمام المسيحيانى ينقص من قدر الجهاد على وجه العموم ، أخذ هو يهاجم فكرة المهدية بما قال ابن خلدون وبغير ما قاله ابن خلدون : تذكر مثلا كيف أحزنته غفلة تاشفين عن أمر محمد بن تومرت حتى أصاب ملكه ما أصابه من عبد المؤمن ولعل مهدية محمد بن تومرت كانت مما طوح بعرب الأندلس إذ أنها هدت المرابطين ولما يضعفوا بعد ، وكانوا غيارى على الإسلام ، وقد بدأوا يتمرسون بركوب البحر وقتال الأفرنج. وما قضاه الله كان . ولم يكن الموحدون بأشداء فى أمر الأندلس كشدة المرابطين .

وجعل المسيحيانى يدافع عن فكرة المهدية إذ عليها قائم أمر مولاه المسيح كله.وأبى بَعْدُ عنادا وإصرارا ألا يقبل مهدية مهدى السودان ليته مُنِىَ بأنصارى أشوس كالعوض بن عبد العال : —

وكان يجلس فى مجلس الفقيه عبد الله فى طرف ، ملتزما سمت التلميذ من الأدب على سنه المتقدمة.وكان ضئيل الجسم صليبا عيناه تشعان بتحفز ينبىء عن حقيقة معدنه . وفى يده فرار (1) كان يقاتل

---

(1) الفرار : فاس صغيرة .

به أيام كان الأنصار • ولم يفارقه حتى بعد «كسر القبة وقلب الجبة» (١)
وعلى رأسه عمامة إحدى تكويراتها تحت أذنيه ولها عذبة •

والفكى (٢) عبد الله الوديع الوجه ، القديس النظرات ، المتواضع الحليم العزيز المنيع ، كان يوده ويستنشده •

وكان كثيراً ما يتفق حضورُ الشاعر الكردى نشيد العوض رحمهم الله جميعا وعطر ذكراهم •

وكأنى بالعوض ينقر بفر"اره الارض ، لا يصل به إلى الارض حقا ، وإنما كان يوقع به لنفسه •

قـــت بالعـــلى العـــالمـــا لل فى الأرِض والسما
مهـــدى الله طبى القاســـما

وهى كلمة طويلة مطلعها

قلبى مشتاق للإمـــام مهدى الله طبى القاسما

وهذا المطلع يكرره الحاضرون بعد كل بيتين ويجىء العوض بآخر شطرة فيه أو بجزء منها بعد كل بيت كما رأيت •

وللعوض فيها أسلوب رنان كوقفته عند اللام قبل أن يصل إلى الجيم فى قـــوله :

مهـــدى الله بيعلمـــــا من قبـــل الجد آدمـــا
مهـــــــدى الله طبى القاســـما

---

(١) هذا مثل معناه قوة الولاء للمهدية حتى بعـــد ان كسر الفاتح قبة المهـــدى واجبر الناس على التخلى عن زى جبة المهدية المرقعة .

(٢) الفكى : اختصار الفقيه ، هكذا يقولون فى لهجة السودان .

ثم أيضا يكرر الراء ويدورها من قوله :

مهـدى الله المنتظـر من شك فيك قد كفـر

وصوته بذلك جهير ، لو سمعـه ذو اللحية الكثة المسيحيانـى لملىء منه فرارا ورعبا .

مدافـع الباشا ضَرَبَنْ رش وزى الموية تحت القش

ولما عاد إلى المنزل حيث كانتا يسكنان قال مب « لا احب ذلـك الرجل » يشير إلى إمام الجامع « إن دينه فيه بدعة وأريد أن أعيد صلاتى » .

وأصاب فقد كان سنيا مالكيا سليم الفطرة لايشك أن من ادعى النبوة بعد محمد كافر . وكان الإمام الجدلى حدثنا عن قرآن صاحبه . وجماعة من الإنجليز قد اعتنقوا هـذا المذهب لِغَيْرِ بُعْدِهِ كثيرا عن الذى كانوا عليه من التثليث

ــ نحن المسلمون الأفريقيون نحب العرب وننسب أنفسـنا للعرب من أجل محمد وأنت أيها العربى المسيحى ينبغى أن تخجل من نفسك لانه لافائدة فى العرب بلا إسلام .

وأحسن الكميت إذ قال يمدحه عليه السلام

بك أجتمعت أنسابنا بعد فرقة فنحن بنو الإسلام ندعى وننسب

وعسى أن يكون الكميت قد نظر فى عجزبيته إلى قول نهاربن توسعه

أبى الإسلام لا أب لى سواه إذا افتخروا بقيس أو تميم

وكانا متعاصرين

وكان (ط) الصينى كثير الكلام كثير الانفعال ، ساخن تعبـير الوجه دافىء العاطفة ومع ذلك قوى الأعصاب

وكان كثير التعجبات الإنجليزية تعلمها من الجيش : قود لورد !
قود هفنز ! ويغنى الاوبيرا .
يُور تايني هانــد إز فروزن
يدك الصغيرة باردة جــامدة
ولم يكن مسيحيا ولكن كان ممن سينضم حينذاك إلى الشيوعيين.
وكان ذا شهامة وتحدث عن الرشوة فى الصين . إن كنت تقبــل
هدايا المال فذاك ، والا فالأفيون ، والا فالنساء وإلا .... لا
يعجزون عن شيء ولا يتورعون عن شيء ... ولا يخلو امرؤ من
ضعف تصل الرشوة إليه من طريقه .
وتحدث عن تقليد شبان الصينيين للأوربيين والأمريكيين حتى فى
الأسماء نابليون ، ولنجتون ، وشنجتون .
وكان الذى صار وزير المالية يلاعبه البلياردو . وكان هادئا يتأنق
فى أسلوب لعبه ويقتدر . وكان «ط» يستعجل ويندفع ثقة بملكة
يده وعينه . وكان مما يخطىء فينفعل ويصــيح . وكان الآخــر
يبتسم فتبدو له أسنان بيض . وكان يبدو عليه انه موصــوف
بالملكة الإدارية وسينجح .
كذلك بدا وهو ينادى «ع».وكان إشراق ابتسامته وعينيه يتألق فى
العاصفة والمطر . وهدوءه وتأنقه وهندامه وغليونه ورقة شفتيه
بالغليون ولم تكونا حق رقيقتين . وسأله «ع» عن زميل له كان
معه أيام المنزل فذكر أن حاله ساءت ، وكأن صلة ما بينهما قــد
انقطعت ... قد كان « أ » حبيا ولكن كانت فيه رعونة.هل انهمك
فى الشرب ؟ (ج) الوزير يكره أن يفيض فى هذا الباب وفى الذى
يقول مشعر ببعضه

وانطفأت تألقة وجه «ج» لما خالطت الملكة الإدارية ما خاضا فيه قليلا من حديث السياسة .

– هل تأتيكم إعانة ؟

– نعم من كل مكـان .

– الأمريكـان ؟

– الأمريكان والروس واليوغسلاف والبلغار والهنغار والإنجليز والصين الشعبية أحيانا والمانيا الغربية وأيضا الشرقية وفرنسا وفى بلدنا عدد من اليونان ... أى شيء كانت المذبحة التى سمعنـا بهـا العام الماضى ؟

– أرادوا ليؤثروا على اتجاه الأغلبية بنعرة دمجوجية . ولكنا غلبناهم بحسب التكتيك الدمقراطى ، وكانت أصواتهم بالرغم عن جميع احتيالاتهم وتكتلاتهم دون أصوات حزبنـا . والآن الأمور جيدا تحت أيدينا .

كان يتكلم بثقة غافلة عن ريب الخطوب ، ثقة من تلقوا درس التخريج فى الدمقراطية من اتوقراطية الاستعمار . إنك لا تجنى من الشوك العنب . وقد تجنى من العنب الشـوك والله على كل شيء قدير .

جيدا تحت أيدينا . وبعد اسبوعين أو دون ذلك أو زد عليه قليلا، شبت ثورة دمجوجية طوحت بالدمقراطية . وشاعت الاخبار أن « ج » من ضحاياها . ثم كذبت الاخبار ذلك . ثم عادت فسكتت عنه سكوتا يريب . أكانت تلك العاصفة التى أفسدت حفل حديقة القصر فلجأ الضيوف إلى الابهاء والحجرات إن هى إلا إرهاص ونذير « وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر » ... « وإلى الله ترجع

الأمور »...يعلمُ خائنةَ الأعيُنِ وما تخفى الصدورُ والله يقضى بالحقّ والذين يدعون من دونه لايَقضُونَ بشَىْءٍ انّ الله هو السميعُ البصير » « إنا لله وإنا إليه راجعون »

فلا تبعد فكلّ فتى سيأتى عليه الموتُ يطرَح أو يغادى
وكل ذخيرةٍ لابدّ يوماً وإن عمرت تصير إلى نفاد

* * * * *

؟ ١٩٤٦ ؟ ؟

ابريل أو مايو ، لعله مايو

كان ينظر من زجاج النافذة والقطار مسرع . والنظر من نافذة القطار يعجبه ويملك عليه لبه منذ الطفولة السحيقة .

ـ أفندى لر ـ أفندى لر
ـ أفندى بضبانة ـ أفندى بضبانة
ـ أفندى لر ـ أفندى لر
ـ أفندى بأربع ضبانات ـ أفندى بأربع ضبانات
ـ أفندى بضبانتين ـ أفندى بضبانتين
ـ أفندى لر ـ أفندى لر

ددق دق ددق دق ددق دق

ـ أفندى بضبانتين

يعنون أعمدة التلغراف وهم ينظرون إليها من نافذة القمرة (من دون شك تعريب Compartment) . قالت الشيخة

ترثى الموظف وكان بها برا :

يال كارس ال فارس ال ما بِتنجضّع السبارس (١)

تمدحه بالهدوء والشجاعة وعدم التدخين .

قال جده يتحدث عن مَحْمَّودَنْ الشنقيطى ، وكان ، قال ، يدخن ، وكان عالما . فسألته ، هل هذا الدخان الذى يدخنه حلال. فيا سيدنا (٢) خلف رجلا فوق الآخرى ثم قال ، والله ياولدى حرام ، تالله حرام

وكان الإمام المهدى يحرم التنباك ، فالشيخ الشنقيطى أقرّ على نفسه بارتكاب الحرمة ليصحح مذهب المهدى كما ترى . وذلك آية علمه وفضله ويغفر له تدخينه ، إن الحسنات يذهبن السيئات. وأنشدته عمته ابنة عمة أبيه

هَوَىْ هَوَىْ نسير   للمهدى فى قدير

السيد إياه السيد
والمهدى الْ فى الأبيض
المهدى رسل مكتوبه
قال لينا صلوا وتوبوا
الحرام اتركوا دروبه
مهدينا ود عبد الله
بسيفه قطع الجلة
والكفرين بالسلة

---

(١) الكارس : الهادىء . الفارس ، الشجاع . بتجضع ، اى ترمى انقلبت الضاد من دال اصله من جدع يجدع . السبارس اعقاب السجائر .

(٢) الفقيه يخاطب الاخر بقوله سيدنا يخفف تشديد الياء ويميل فتحة السين .

بإمالة الكفرين على مذهب القراءة البصرية ، وزعم سيبويه أن الكافرين بالإمالة أكثر عند فصحاء العرب ، ومنهم من يميل الكافرون .

وأنشد صديق له هدندوى طبيب قضى نحبه شابا رحمه الله رحمة واسعة ، وكان صيتا ، وكان يترنم : —

سلم غردون ياكافر   للقاعد والمسافر
يا الشارب التنباكا   ربى الكريم يبلاكا
هَوَىْ هوىْ نمشى له   للمهدى فى قدير ،

والهدندوة من أطيب خلق الله صوتا وانشادا ولهم ذرو من معرفة الانسجام والمقابلة يسير . وعلى وزن أغنية من أناشيد السماكين الهدندوة نظم الشيخ محمد المجذوب كلمته : —

ياصحيح الباطن   هأنذا قاطن
هأنذا ساكن   فىبرور سواكن
أهل القيف والحافا   مُدْ لَهُمْ ألطافا
كن بهم رآفا   يوم الناس خوّافا

اى خوّافه

والكلمة بين العامية والفصيحة الميسرة ، غاية فى الحلاوة .

* * * * *

الضان والبقر الضخام كأنما عليها الملاءات والأشجار الدوحات العظام والشمس مشرقة على الربا والوهاد والشجيرات والحظائر كأنما هى قمر . ولقد نظر أبو تمام فأدق النظر حيث قال :

تريا نهاراً مُشمساً قد شابَهُ   زَهرُ الرُّبا فكأنمَا هو مُقمِر

وشمس إنجلترا إذا سطعت خالط ضوءَها هَبْوٌ من بخار الطلّ، هَبْوٌ لاتكاد تتبينه أول الأمر،كأنما هو كسرة رقيقة ــ جزء من ألف ألف من المليمتر من الزجاج الشفاف ــ قيل ادخلى الصرح فلمّا رأته حسبته لُجّةً وكشفت عن ساقيها . وكان عليهما شعر خفيف .

ددق دق ددق دق ددق دق دق

قطار مصر أسرع من قطار السودان
جماعة ضخمة بكوم أمبو يهتفون
وصوت منفرد يقول
يحيا جمال عبد الناصر
بإمالة بين الصاد والراء وهو جهير بذلك
يحيا جمال عبد الناصير !
أول الغيث قطـرة

وفطن باطن وجدانه أن هذه النغمة سيكون لها صدى مُدوّى.
لايعلم الغيب إلا الله

انتبه لانفراد ذلك الهتاف أيما انتباه
وكأن ذلك كان منه حدسا

إنّ لها لسائقا عَشَنْزَرا　　　إذا وَنَيْنَ مرة تغشمرا

وعنده مفاتح الغيب لايعلمها إلا هو

ذكر تفسير الجلالين أن البخارى روى أن مفاتح الغيب خمسة وهى آخر سورة لقمان

« إن الله عنده علمُ الساعة ويُنَزِّل الغيــث ويَعلَمُ ما فى

الأرحام وما تدرى نَفْسٌ ماذا تكسبُ غدا وماتدرى نفس بأى أرضٍ تموت إن الله عليم خبير »

* * * * *

كان شاعرا وكان مرهف الإحساس من بيت كريم لا يملك نفسه من دعوة يدعوها وجفنه كرام يحبوها .
إذا نزل الأضياف كان عَذَوَّراً على الحىّ حتى تستقلّ مراجِلهُ
وكان الحاكم العام هدلستون يريد زيارة قريته . وأنبأهم بذلك. وكان هدلستون أخا حرب وسفر . وهو الذى فتح دارفور عام ١٩١٦ وكان يأمّل إذ أنبأهم أن يعدوا له وليمة قرية . وكان ذكر أنه سيحضر وقت الفطور وأقل ما كان ينتظر خرفان تذبح وقد يذبحون ثورا أو ناقةً لإظهار السرور

وما فكر القوم فى غير ذلك أو نحو من بابه . إلا أن شاعرنا تقدهم فى الذى ذهبوا إليه. « هؤلاء الإنجليز يجاملونكم إن آكلوا معكم من الخروف المشوى كاملا . أما المرارة (١) فلا تلائمهم ويستقذرونها . الرأى عندى أن نوافيه بنوع الفطور الذى هو معتاد عليه . » وجعل يشرح لهم كيف يمكنهم أن يستأجروا عربات وزمرة من طهاة الفندق الكبير وسفرجيته وأدواته . ذلك سيكلفهم أكثر من ثمن ثورٍ وناقة . وعشرة خرفان مع بخشيش الطهاة . وما يطهون ؟ كورن فلاكس باللبن من بعد جريفروت

(١) المراره : الكرشه والكبد والرئة من لحم الخروف تقطع نيئة معا ويحلب عليها الليمون وتؤكل نيئة .

بالمعلقة والسكر ثم سمك من عجل النيل لا يصطادونه من شاطئهم ـ وذلك ممكن ـ وسمك شاطئهم غض حلو ، ولكن يشترونه الأقة بثلاثين قرشا أو عشرين . ثم الطهاة يحضرن الزبد فى الثلج والبيض يقلونه مع لحم الشرائح « البيكون . » ولحم الخنزير ضرورى للنصارى لايصبرون عنه أبدا لأنه ألذ اللحوم ! الراجح أن النصارى يكثرون أكل اللحوم الخنزيرية ليؤكدوا خلافهم اليهود والخنزير حلّله بولس . ولا يعقل أنه كان فى مائدة عيسى التى نزلت من السماء ولا ذكروا أنه كان فى العشاء الأخير . وحلله بولس بما زعمه من أنه رأى رؤيا مائدة فيها كل شيء وأن المسيح تناول من كل ذلك أو أمر به أو أجازه ؛ شيء من قبيل ذلك كان .

وسأل مسلم صاحبه هل الخنزير المحرم فى القرآن هو عَيْن الحيوان المدلل الذى يحفظ فى الظل بدنمركة ويطعم الكعك والطيبات ؟ ورحم الله ذلك المسلم السائل فقد قضى نَحْبَه وماكان سؤال مع سلامة النية ليضير وسأل مسلم آخر فقيل له (وكان يريد أن يتزندق) إن هذا اتجاه تشريعى.همّ الإسلام بتحريم اللحم كله، ثم اكتفى بالخنزير كما همّ بفرض خمسين ثم اكتفى بخمس ، شاهد ذلك قوله تعالى « كل الطعام كان حلاً لبنى إسرائيل إلا ما حرّم إسرائيلُ على نفسه » . فلَوْ لم يتطوع بتحريم لكان لهم كله حلالاً . وما تطوع إلا لحكمة مما علمه الله . وكان فى هذا كالردع لزندقة السائل إلى حين .

وسألت فتاة بالتلفون وتلك آبدة:«لماذا حرّم لحم الخنزير؟» حتى الفتيات أنشأن يفكرن فى الزندقة ياللويلات .

وقال لها لقد ذكر الله السبب «فإنه رجس» ـ سورة الأنعام ـ قال

تعالى : « فاجتنبوا الرجسَ من الأوثان واجتنبوا قول الزُّور » ـ الحج . وقد كان الخنزير مما يعبده الكافرون الأولون،أى كان وثنا وكثير من الدندرمــة التى بأوروبا من شحم الخنزير فيهــا نصيب واف . وكثير من أصناف البسكويت فيما بلغنى يدخلها الخنزير شحمه لا لحمه،فإن تمسكت بحرفية النص فعسى أن تسلم. هــذا

وسار الحاكم العام إلى القرية التى فيها الشاعر،ينتظر شواء حنيذا، ووراءه كانت عربة فيها سفرجية بالأحزمة والقفاطين والمربى المرمليد والشوك والسكاكين .

وكان الشاعر جاءه وهو مهموم همًا روحيًا عميقا .

كان رئيسه المستر الإنجليزى دعاه ثم أخبره أنه وصله خبر سار جدا . سار جداء وذلك أن زوجته ستضع توأمين ذكر وأنثى . ووضع الشاعر الليمون أمامه مذهولا : « ستضعُ ماذا تقول ؟ »

ـ نعم ، جاءنى خبر بذلك

ـ ولكن

كان هو يعلم المستر العربية ولم يكن يعرف الإنجليزية .

ـ ولكن هذا من الغيب الذى لا يعلمه إلا الله .

ـ هذا لا أعلمه ياشيخ فلان

كان المستر مدرس الفنون فيه اتجاه إلحادى عصرى ، رجلا سوى ذلك فاضلا حسن العشرة .

ـ الذى أعلمه أن زوجتى ستضع توأمين والاطباء عندنا يعرفون هذا . وانتظر الشاعر حتى لقيه المستر ذات يوم جذلان . وضعت زوجته ذكرا وأنثى وسمَّاهما .

وجاء الشاعر إليه وقص عليه قصة المستر وتوأميه وكيف ذلك ومفاتح الغيب . وقد كان ضميره حقا قلقا والشك قد هزه والتفاسير لم تعنه .

قال له : « الله يعلمُ ماتحملُ كلُ أنثى وماتغيض الأرحام وما تزداد» إن الله انفرد بالعلم المحض المطلق لايَنتَقبُ ولا يستطلع ـ هذا وجه ، كتعليم ربك الأسماء ، فعلمُ الله بها ليس كعلم آدم . وعلم الله مافى الأرحام ليس كوصول الطبيب إلى معرفة ما عسى أن يكون فيها ، ثم قد علم ربك منذ « ألست بربكم » أى رحم منهن مخصب وأى رحم منهن عقيم . فلا يَختَتلَنّ إيمانك من أجل هذا العارض . وسلاه وأفطرا وشربا شايا . وعجبت زوجه لم صار إليه ذلك الشاعر ليسأله دون علماء الدين وهو لم يك منهم . وعجبت وهى راضية عما عجبت منه مزهوة به مسرورة .

* * * * *

وقالت الشيخة ترثى ذا ثكلها

بطّرنى ومابَيّنَهرَنى وفى قَمَـرَهْ سَفّرنى

وهنا محل الشاهد

أى نعمنى فجعلنى ببره كأننى فى بطر ولم يكن ينهرنى وبلغ من إكرامه لى أنه كان يتحفنى بالسفر فى القمرة .

وأفندى بضبانة اصطلاح اصطلحه ولدا الحكيم لعمود التلغراف الذى يسنده طنب سلك واحد مشدود إلى وتد حديدى مغروس فى الأرض وبضباتتين أى بطنبين . والطنب بضمتين حبل الخيمة وجمعه أطناب قال أبو تمام :

حتى تركت عمود الشرك منعفرا ولم تعرج على الأوتاد والطنب
كأنهما شبها العمود الذى له طنبان بذَبانة ، «ضبانه» أى ذبابة ،
لها جناحان • ولم يشبها بعصفورة أو حمامة لكثرة الذبان آنئـذ
فى المنازل والذال تنقلب فى العامية ضادا • من ذلك قولهم الضباينة
لقبيلة بشرق السودان أصلها لاشك من بنى ذبيان وإليها ينسـب
ولد زايد صاحب القدح المشهور • قيل كان ينحر الناقة •

كانت جدته تقول ذبحوا لنا اليوم جَزَرَة • وكـان ذوق الناس لم
يفسد فكانوا يحبون الإبـل •

وكان ولد زايد يأمر من يأمرهم أن يجعلوا لحم الناقة كله «شرموطا»
و «الشرموط» هو القديد ، أكثر ما يصنع من لحم البقر • وخبر
ولد زايد يدل على جواز عمله من لحم الإبل • ولحم البقر أطعـم
وأشد أسرا فتقديده يميت من أسره •

وينشَّفُ الشرموط بأن يقطع اللحم شرائح مستطيلة فيها سُمْنك
غيرَ رِهافٍ عراض ، وليس بسُمْنك عظيم ، وتعرّض من الظـل
للهواء حتى تجف فتجفّ ولا رائحة لها ولا أدنى تغيير ، وتبقى
على ذلك الدهر الطويل ونزول المطر مما يفسدها •

ويدَقُّ الشرموط ويوضع منه قليل مع «الويكة» المدقوقة ويسمى
هذا ملاح الشرموط •

واذا كثر دقيق الشرموط وخلط ببصل محمر فى السمن مدقوق
وبويكة مدقوقة كان منه ملاح أحمر ثقيل الوزن عظيم الغذاء لذيذ
الطعم يسمى ملاح التقلية •

والشرموط يُعَلَّق على حَبْلٍ ليجفّ ، وإن لم يدق ترك جافًا على الحبل هكذا ، وهو أصون له من أن يحفظ دقيقا . ولا خطر عليه إلا من القطط فإنها تحبه . وإذا وضع فى الماء الساخن ودُقّ أمكن عمل الكفتة (وقالوا إنها من أصل تركى وليست من الكفت بمعنى الأخذ والجمع) والمحشو (الذى يسمى المحشى ويجمع المحاشى) من الكوسة والبنضورة والباذنجان والفلفل الأخضر والمكرونة بولانجيز .

وأصل الشرموط من دون ريب من (شرط) زيدت الميم للدلالة على مايقع من تشريط اللحم وتشريره .

ولايعرف الشرموط فى غير السودان إلا بالتاء ويكون حينئذ علماً بالغلبة علم جنس على ضرب من النساء . ولا ريب أن أصل هذا الاستعمال من التشبيه كأنها لحم على وضم .

وبلغنى أن بنجد من يستعمل كلمة الشرموط استعمالها بالسودان وأنه بمصر قد يقال للخرقة البالية شرموط فهذا يقوى أن أصل الاشتقاق مادة (شرط) .

وإذا جعل لحم الناقة كله شرموطا ثم جعل مُلاح شرموط فهو مقدار كما ترى عظيم . أتظن أنه يبلغ ثلاثة أمتار مكعبة من الملاح (أى الإدام) ؟

وكل هذا كان يُصَبُّ مع الكسرة فى قدح واحد هو قدح ولد زائد . والكسرة بكسر الكاف خبز رهاف كأوراق السجائر إرهافا من الذرة المخمرة ويخبز على الصاج أو على « الدوكة » وهى كالصاج ولكن من الطين المحروق أو من « النَّهَمْر » وهو ضرب من الحجارة ، وكان هو المستعمل فى أرض الجمليين .

وكان الناس يصطفون حول قــدح ولد زائــد ، فوج يجىء بعده فوج ، كما قال الفرزدق

قعودا وخلف القاعدين صفوفهم   قياماً وأيديهم جموس وثطف

ــ أفنــدى لــر

أى لا سلك له وأصلها لعله تركى

* * * * *

ورأوا قاطرة سوداء مقلوبة أو متكئة على جنب كأن مدخنتها كان يخرج منها دخان كما يخرج من بخار « كفتيرة » الشاى قبل أن يستحر غليانه أول ما يبدأ يشعرك بأنه يغلى .

وكان القطار متجها إلى درديب نحو هيا ــ تقاطع هيا . وكانــت جدته تقول « الحية » وتحسب أن البجاة يخطئون فى نطق لفظها العربى . والحاء من أعسر المخارج .

اللهم غفرا . لعل الجيم والقاف والثاء والذال والضاد هن أعسر مخارج لكثرة ما يخطىء فيهن الناس القارئون الكاتبون .

رحم الله الذى قال :

قد كبِر بِرْ بِبِرْ بِبِرْتْ وعقلى إلى ورا *

هذا أجود من أصناف من الشعر الحديث

* * * * *

وكانت الدنيا ليلا دامسا وهم ينتظرون القطار . كانوا قادمين من بلدتهم إلى كسلا وهذه « هيا » التقاطع . هذا كان قبل زمــان « أفندى لر ... أفندى بضباتتين »

لنعم الفتى تعشو إلى ضوءِ ناره   طريفُ بن مالٍ ليلةَ البردِ والخَصَر

وبدا القطار كله أسود لولبيا . هـذا كان من تأثـير مرور العربات البيض بينهن الوصلات السود . هى وحدها بقيت منطبعة فى مخيلة فؤاده . وركبوا على أرائك خشبية عراض فى الدرجـة الرابعة . واستغرب استغرابا محضا . كأن استغرابه هذا كان سؤالا لم صير بهم إلى الدرجة الرابعة بعد الثانية ذات الخيزران والأنوار . وتأويل ذلك عساه كان هكذا :

عند التغيير « بهيا » لقوا جماعة من بنى بلدتهم وأقاربهـم فى الدرجة الرابعة قادمين من بورسودان . وقالوا لهم إن الرابعة أرحب ويد الله مع الجماعة وكرهوا لهم وحشة امتياز الدرجة الثانية . وهو يذكر بعد سواد الوصلات والصباح والشاى وبرتقـالا أو شريحة من برتقال أو برتقالة تقشر ، قدمها إليه منهم أصفر ظريف .

« ياظريف سف وتهنا   كيفك بالدنيا »

هـذا كان مكتوبا على حقة السعوط (1) رآها فيما بعـد ، والحقة عليها خطوط كالتى على قفطان الشاهية .

ليكاد الآن يشم رائحة البرتكان ويرى لون فصوصه .

ورأى الظريف الأصفر قادماً من نحو السوق بجانب الصريف يده إلى ميزان دراجة « بسكليت » وهو يقود البسكليت فخورا به ، والبسكليت يلمع حديده . وزهو الظريف به آنئذ كان مثل الزهو الذى يراه الآن ، أو قد رآه يوما على وجه بعض الناجحين الذين ارتقوا بأخرة يقودون لِمَوزين وتِلِفِزيون وترنسستر وكأس ويسكى ويخطبون عن مستقبل مؤسسة وخطرها من الوجهتين الانسانية والقومية .

---

(1) هو التبغ يسحق فيجعل دقيقا يتسعطه اصحاب الكيف ويضعونه فى افواههم .

وإنك لم يفخر عليك كفاخر ضعيف ولم يغلبك مثل مُغَلَّب

ويذكر إشراق النور بفجاءة لما كانوا بالدرجة الثانية فى القمرة باهرا ويد جده إلى لحية خفيفة : عجايب يا فقرا ، ديل ال عَلَّبِنْ مِنّو ؟ » أى من أوقد هذه المصابيح ؟ علب كانت تستعمل آنئذ فى معنى أوقد ، عَلَّبِنْ أى علبهن أى أوقدهن .
والآن تقول علب تعليبا والتعليب من أبجديات الاقتصاد السياسى القومى فى البلدان المتخلفةالتى تريد أن تتصنع وهى بحمد الله كثير، وما كانت تحلم كلمة العلبة التى ذكرها جرير :

إذا نهض الكرام إلى المعالى نهضت بِعُلْبَةٍ وأثرت نابا

بأن ينتج منها مثل هذا الاشتقاق .
عجايب يافقرا ولم يكن بالقمرة « فقرا » غيره

* * * * *

وقالت امرأة متشيطنة لصواحب لها وكن سائرات ورأين جماعة من « الفقرا » ثيابهم بيض عليهم العمائم وكأنهم ملتثمون : « سأغايظ لكن هؤلاء الفقراء وأريكن ضحكهم .. يافقرا هوى أفعل بيكم وأفعل بيكم . » وقالت كلاما قبيحا فأعرضوا ملتثمين يكادون يتقطرون خجلا . وقال أجرأهم : هوى ، غلنا لك زى ماغلتى لنا » يقلب القاف غينا مبالغة فى التفاصح .
وقال الثانىء وكانوا ثلاثة:وانا ياسيدنا كذلك وابان فتحة الكاف.
وقال الثالث : وأنا يا سيدنا أشد من ذلكً .

* * * * *

وطفق جده ينظر إلى المصابيح اللواتى « علبن » علبهن سحر هؤلاء الترك (بضمتين أى الانجليز) المماسيخ .

ـــ دحين كل ما ادور المحل دا يافقرا القى فيه زولا بيعاين لى واصـــــــدّ .

(وكان إنما يرى شخصه فى المرآة .)

ددق ددق ددق

قال وقد ألقى عليه الدهر كلكلا وهو يفتل حبلا إلى جانب «المترة» (1) كنت أيام الشباب أركب حصانا إلى وادى أب سلم . وكان أخوه يدخر الحبوب حتى إنهم فتحوا مرة مطمورة قديمـــة مـــن مذخوراته فوجدوها سوّست . وأنقذ الناس من مجاعـــة سنة ٦ وكان عنده السمن والتمر « الستكوت » الغلاظ .

وهل حقا كان غنيا وله مال ؟

حملناه فى جراب على فمه شعير تؤنا بحمله فلا أدرى أين ذُهِب به ولقد حفروا كل مكان فكأنما طارت بالمال عنقاء مغـــرب .

* * * * *

وذاكرته تتجاوز به عهد سطوع النور بفجاءة عليه وعلى جده معاً إلى أبيه يخطو عليه ثياب بيض ومخلاة فيها اللحم السمين جيء به من الداخلة (2) وأمامه الآن أكواب الشاى ، كلّ الأكواب التى صُبّتْ أكوابه ، وأهله منتظرو اختياره صابرين .

والحمـــارة أم ذنيب وحلت فى الخور وهو يقدم رجـــلا وفـــزع فأخرهما إذ وحل فخاف الغرق

* * * * *

---

(1) ساقية الماء تكون على بئر لا على النيل نفسه .

(2) الداخلة : اسم مدينة أتبرا لما كانت حلة صغيرة .

وغرق مرة وكان لايعرف العوم فملك نفسه وحبا من حيث كان إلى مكان كان ضحلا تذكره وأعانه على ذلك معين فنجا .

* * * * *

وبينما هو ينظر سقط على عينه « كمكول » . وكان الناس اذ ذاك يجنون الصمغ ويقرظون القرظ ، وكانوا عربا .

المطـوى ال جـانـا دابثـه
بسـلل فى رُقـابثـه
سنَك لبَنْ زولاً ظريـرف حلابثه

يميلون الألف من «حلابه» جهة الواو فتوشك أن تكون «حلّوبه» بلام مشددة بعدها واو .

الاخضـر ماشفتـنّه

تجعل الضاد من الأخضر دالا ولا تنطق الهمزة المفتوحة ولكن تشدد اللام كأنك نقلت فتحة الهمزة إليها . وشفتنه بتشديد النون مضمومة أى رأيتن إياه (فصلنا الضمير هنا للتوضيح).والأخضر أى الشاب ذو اللون الضارب للسواد

العقـر مـا بيلدَنـه

بتشديد القـاف جمـع عـاقر أى العـاقرات لا يلـدن مثله

عشرين ريال من سرجه ما بد لتّـه

أى إن رأى عشرين ريالا على الأرض فإن ذلك لا يستخفه فيجعله يتدلى من سرجه ليلتقطها ـ هذا من كبريائه . وكان الريال عظيما آنذاك والكمكول الصمغة المستديرة المجتمعة.ويحسبه سقط على عينه اليسرى

* * * * *

ورأى الوابور الذى كان يقــدم ليحمل بالات — لابل — شوالات القطن لترسل لتحلج وتجعل بالات •
ددق دق ددق دق

* * * * *

هنا أيضا بكادلى وشارع أكسفورد كما فى لندن ، والمبانى شديدة السواد ، ومما كان سيزوره المصنع الذى به يغزل قطــن السودان •

رآه يصب فى صبّابة فينهمر منه كالماء ، ويتطاير منه كالزبد، فأما الزبد فيذهب جفاءً ، ويستمر الذى كالماء المنهمر • قال الرجل الشديد المراس فى وجهه ، : « نعرف طول فتلة القطن هكذا • » وفرك من القطن بين أصابعه • وهذا نهير يجيئنا — (قال نهر بلا تصغير) — بالصنادل من ليفربول ، يجىء من القناة ، والفحم هناك، واشار إلى مكان منجم ،

وقد يجمع الله الشتيتين بعدما   يظنان كل الظن أن لاتلاقيا

هذه دروس الجغرافيا التى كانوا يلقوننا إياها فى المدرسة الأولية التى كانت تدعى الكتاب : منشستر وليفربول وتشتهران بتجارة القطن ، ليدز وبرادفورد وتشتهران بتجارة الصوف ، برمنجهــام وشفيلد ، الصلب والآلات القاطعة •

* * * * *

أنتم متأثرون بالتعليم الانجليزى لانكم كنتم مع الانجليز، كما يكون الخــدام مع مخدومه أو سيده • لم يخطر له قط أن يقول لأن الانجليز كانوا معكم أو حكاما عليكم أو مستعمريكم أو ما شئت مما لا يفيد معية الخدمة

* * * * *

وقد ضربه قرب عينــه عود ناتىء من صريف وكانوا يجرون فى حلة الحلنقة بكسلا ٠

* * * * *

قال عامل الحانة بأسنان فى بعضها تفليل أو ســواد ، متأسف ، لا نخدم السادة الملونين ، وانصرف السيد الملون إذ مباركون الضعفاء المتواضعون لأنهم سيرثون مملكة السماء ، « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ٠ » يفزعه شيئا أن يكثر الاستشهاد بهذه الآيــة أن المصعب بن الزبير خطب بأول القصص ، وأشار يمثل أعداءه بهامان وفرعون وهلــم جرا ٠ وكان من أمره أن قتل بمسكن وقتل ابن الحوارى أخوه بمكة ولا فزع ٠ فقد كان ينبغى للمصعب حين تلا أول القصص ألا يحصر آيات الله العراض فى الامثلة اللاتى مثلهن بها ٠ وكان أخوه رضى الله عنه أخطب منه ٠ وعن سعيد بن المسيب أنه قدم معاوية وابنه وسعيدا وابنه فى الفصاحة وقال : ليس ابن الزبير بدونهم وكأنه ذكــر أن لاماء لكلامه ٠ وكانت فى ابن الزبير شدة ٠ والذى ينسب إليه من البخل أحسبه باطلا ٠ والشواهد التى يستشــهد بها نحو « إن وراكبها » (١) « أكلتم تمرى وعصيتم أمرى » أدخل فى باب لذع اللسان منها فى البخل ، وأحسب هذا ما عناه ابن المسيب حــين تحدث عن فصاحته فذكر ماذكر ٠

وينسبون تضعضع أمره إلى البخل ، فإن جاز نحو هذا فلماذا لم يتضعضع ملك عبد الملك وذكروه بالبخل وجعلوه من باب التدبير

---

(١) قال له احد من كانوا يميلون الى بنى امية وكان قدم عليه ليعطيه فلم يعطه : فلعن الله ناقة حملتنى اليك فقال له ان اى نعم وراكبها وهذا يدل — مع اللذعه — على سعة صدر منه وماكان قائل هذا له ليجسر على قوله عند زياد مثلا

ومن أسباب نصره ، وبنحو ذلك ذكروا أبا جعفر المنصور • ولماذا لم ينجح المصعب وكان كريما ومهر ابنة طلحة ألف ألف فقيل بُضْعُ الفتاة بألف ألفٍ كاملٍ وتموتُ سادات الجنود جياعا والناس مولعون بحسد الملوك •

* * * * *

وذُعِرَ من مرأى الوابور ومسمعه ذعرا طار منه بقدمى طفل حتى وقع فى شوك الزريبة فهو يزار به موسى العزب •

وها هو ذا قاعدا أمام شبح جدار يعصر ورم الوعى فيخرج الشوك أسود كل شوكة لها ألم لذيذ ، متى شاء ذكره فخيل إليه أنه يحس به كله من جديد • كان من هذه الآلام واللذات الخالدة مدى العمر • وأشد ماتكون اللذة حين يخامرها كالألم أو الألم بلا كاف تشبيه • ولله درشيلى إذ يقول :

Our sweetest songs are those that tell of saddest thought.

ولولا زيارة موسى لقد كانت قدماه قطّنتا • فالشوكة فى باطن القدم قد تنبت نبتا ثم يصير نبتها قطنه والعياذ بالله• «لمسناالتقيلة» (١) أى التراب•وموسى العزب «راجل السبوت خرّاج النّبُّوت» إذا زار ذو النبت ضريحه سبع مرات ، مرة كل سبت ، متواليات أخرج النبت والقطنة • وصيّرهما «وعى» أى مدة أو شيئا هيناء ويقال إنه إذا صار النبت فى الرجل قطنة فليس دون القطع علاج• والشوك إذا دخل العصب الحى لايصير قطنا ولكن يذيبه اللحم والدم اللذان ظن زهير أنهما لايصنعان شيئا فى قوله « فلم يبق إلا صورة اللحم والدم » (٢)

---

(١) اذا ذكرت النساء واحيانا غيرهن مرضا منكرا لمسن الارض تعوذا وقلن لمسنا التقيلة . (٢) صدر البيت قوله لسان الفتى نصف ونصف فؤاده.

والشوكة القديمة يجعلها بلاها شديد الضرر ، وتكون سامة لما يجتمع فيها من قذر . وشوك السنط والطلح كل ذلك غائل . وليس بدونهما شوك السدر الذى كأنه خناجر صغار .

وقول الآخر يصف قطعة ثوب نسجت له :

حوكت على نِيرَين إذ تحاك تختبط الشوك ولاتشاك

فيه تزيد . أو يكون ناسجه قد سبق إلى صنع الذى يسمى «المشمع» من الأقمشة الخشنة المتينة . وفى الأعراب الأكاذيب . زعم أحدهم أنه علق قربة ماء على فرع شجرة فأكلته الأرضة وأكلتها وبقى الماء وحده معلقا فى الهواء شأنه شأن البيوت المزركشة المصنوعة من الما غرفات فوقهن غرفات ، فى كتاب دقائق الاخبار فى ذكر الجنة والنار .. ومن قرأه وهو صغير أدخل فى قلبه إخباتا عظيما . ومن قرأه وهو كبير فقد يعينه على تقديم رسالة للدكتوراة . وأكثرهن من هذا الضرب . وولى زمان « الكلب من لا يعرف للكلب سبعين اسما » .

ويرى المعاصرون من علماء التربية ومعهم ابن خلدون أن التحفيظ يهلك ملكة التحليل . وأجود أن يقال إن التحفيظ بلا طريقة ذات فن وجمال وأدب قد يفعل ذلك .

وموسى العزب كما يخرج « النبت » يفل شوكة الكاذب إذا حلف عنده ، وفى ضريحه سيال طوال ، أعنى حرم ضريحه . ومن حلف عنده كاذبا نُكِبَ ً لايختلف فى ذلك اثنان . فلذلك يتنكب الناس أن يحلفوا عنده .

* * * * *

وبناحية أتبرا ولى صالح يقال له عبد المعروف له قبة ظاهرة

ذكروا أنه حلف عنده رجل كاذب فخرج من البنية خروفاً يقول باع باع .

واستجارت بعبد المعروف أمة أيام المهدية كرهت جور سيدها عليها أو أبقت كما يأبق العبيد . فجاء يناديها لتخرج من خارج البنية وهي لا تجيب وهو لا يجسر أن يقتحم عليها البنية من خوف أن ينكبه عبد المعروف غيرة على حرمه . وجاء بقارى (١) له حصان وحربة فوجده على تلك الحالة فسأله ، فعلم من أمره، فدخل فأخرج الأمة صاغرة داخرة . واشرأب الرجل ليشكو البقارى ويقود الأمة . فقال له البقارى إنك عجزت أن تأخذها من هذا الميت ، أفتطمع أن تأخذها منى أنا الحى . وكان البقارة آنئذ حكاما ، ومضى بها يستن . ولا شك أن الشيخ عبد المعروف قد أجارها من سيدها أمنع جوار وأكرمه ، نفعنا الله به وقدس سره.

وأب بشر أبو بشرية أغبر صاحب ضريح .

قالوا إن الفكى أحمد ود جلال الدين زاره مع حوار له (أى تلميذ له) وكانت معه قطعتا نقود ، إحداهما جيدة كبيرة والأخرى دونها : ريال جديد وآخر ممسوح . وأعطى الفكى حواره الريالين وأمره أن يضع الجديد فوق تربة أب بشر ويحتفظ بالآخر.ووضع الحوار الريال المسهوك فوق التربة واحتفظ بالجديد ؛ ثم سار . وفى الطريق التفت الفكى (الفقيه) أحمد ود جلال الدين (ود أى ولد أى ابن) إلى الحوار وقال له أنت ما وضعت الريال الجديد فوق التربة . وأراد الحوار أن يضطرب ، فقال له الفكى أحمد

---

(١) بقارى ، رجل من قبيلة البقارة وهم رهط الخليفة عبدالله من عرب غرب السودان .

يثبته « جاءنى أب بشر نفسه وقال لى أخذت ريالى ورددت عليكم ريالكـم » ــ دحين اتبن ريالك •

اى انظر ريالك هل تجده • أتبن أى فتش وانظر أصلها ثبن باب ضرب • ونظر الحوار فوجد الريال المسهوك • لقد أخذ أب بشر رياله الجديد • ولعل الفكى أحمد كان نذر زيارة أب بشر •

وأكثر أهل الدامر يزورون أب بشر للزيانة ، وما كانـوا يتهاونون فى ذلك مع أن مكان أب بشر بعيد ، وراء فتوار ، غرب النيل ، قالت المادحـة :

ويا اب بشر ال ورافتوار

ولم تكن المواصلات إلا الحمير « سيروا فيها ليالى وأياما آمنين• »

والزيانة حلق الشعر • وكل قوم لهم شيخ يحلـقون عنده عقائق أطفالهم • يتركون من شعر الرأس شيئا يرمز إلى العقيقـة ويحلقونه عند الشيخ • الولد الصغير لا يحلق رأسه بالموسى ولكن يجز من أطرافه بالمقص ، وتترك قطعة مربعة فى مقدمتـه تسمى القـُصة (بضم القاف) • أو تترك قطعة مربعة فى المقدمة وأخرى مستديرة فى مؤخرة الرأس فوق القذال•وهاتان تثبتان على الرأس لاتحلقان ولا يُقَصُّ منهما بالمقص إلا يسير جدا • وتحلقان عند الشيخ ، شيخ الزيانة ، وهو أبداً ضريح •

وقد يترك للولد ذؤابة أو ذؤابان • وأكثر ما تترك الذؤابـة إذا مرض الولد ثم تُنذَر له أنه إذا شفىحلق من شعره عند الفكى فلان وذبح عتود نذرا للفكى فلان ، وهذا يكون غير شيخالزيانة، كأن الذؤابة تفردٌ عن باقى الشعر الذى هو نصيب شيخ الزيانة• والذؤابة التى يُنذَر بها تسمى « قنبورا » ولا يكون للولدقنبور

بعد البلوغ إلا أن يكون لم يف بالنذر.وحينئذ يستمر معه القنبور إلى حين يتهيأ له الوفاء . وحينئذ يجهد هو فى تغطية ذؤابات رأسه لأن الذؤابة (القنبور) علامة الطفولة والكبير يخجل منه . ومن أجل هذا يقال للأحمق « الدلاهة أم قنبور » و « أم قنابير » . وفى نص هذا المثل مايدل على أن البنات أيضا تنذر منهن ذوائب.والغالب على البنات ألا يحلق من شعرهن أو يقص . وإنما يضفر ضفائر صفوفا . ثم يذهب بهن أهلهن إلى شيخ الزيانة فيحلقن شعرهن كله هناك . ثم ينمو شعرهن من جديد .

وكثيرا ما يؤخر الناس حلق البنت لبعد أب بشر ، ومشقة السفر إليه وشدة الهجيرة عنده . والبنت تسافر معها الأمهات والقرائب وفى حركة النساء بطء وثقل وأعباء .

وتمرض البنت ويموت جناها إذا زوجت ولم يحلق شعرها عند أب بشر . ولا يترك اب بشر حقه . فيضطر أهل البنت أن يذهبوا بها إليه وأن يحلقوا شعرها عنده .

وبعض أهل الدامر زيانتهم عند حسين ود حمد وهو من أركانها سرع النجدة للداعى رضى الله عنه ،

وشيخه هو عبد المقيت ـ (أو عبد المغيث وعلى هذا أصوب) .
هاهم أولاء وسط الصحراءحولهمالسلم والشوكوفوقهم الهجيرة.
ولا يذكر أ أحضروا ماء معهم فى قربة أم أخذوا ماء من بئر فى الطريق . وكانت على رأسه دائرة شعر صغيرة حلقت عند عبد المغيث .

وكان سائره حلق من قبل ،فى نفس اليوم عند الشيخ المجذوب.
وكان عجيبا عجيبا أن صير به من ذلك « المقام » ذى الرايات

والكسوة والأبهة والركائز والظل والعِطْرِ والبخور والسادنات العدد . هنا قناة قديمة وعصا قديمة كانتا رايتين وقبر بالٍ . والحارسة العجوز جدا ثالثتهما . كان عجبه كما عجب حين صير بهم من الثانية إلى الرابعة فى قطار « هيا » أعوذ بالله من الحَوْر بعد الكَوْر .

وإنما كان شيخَهُ عبد المغيث وليس الشيخ المجذوب بشيخ زيانة . ولكن قد نذر أبوه أن يحلق هناك شيء «كالقنبور» ولكن لا « قنبور » ولا عتود .

وعبد المغيث وعبدالمعبود بيتهما الشيخ المجذوب (صاحب المناقب) فيما ذكروا . قولنا صاحب المناقب أى هى مناقبه ولكن دونها ابن أخيه الشيخ الطاهر .

ولعل عبد المغيث وعبد المعبود أقدم عهدا من اب بشر أبى بشرية، إذ هذا عند الناس من الصالحين ، وهما عندهم من السحابه بكسر السين أى الصحابة .

ولا تعجبن من هذا فقد ذكر بعضهم (أحسب أن المختار السوسى ذكر ذلك فى كتابه المعسول) أن أصل إسلام البربر بالمغرب من جماعة منهم صحابةٍ وفدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع ، فبايعوه وعهد إليهم بنشر الإسلام فيما دون البحر إلى الجبل والصحراء .

وفى البربر غيرة . وحرصهم على أن يكون منهم صحابة شاهد على قوة رابطتهم بالإسلام رابطة لقاء لصاحب الرسالة نفسه كما ترى .

وعند بعض الباحثين المعاصرين أن نحو عبد المعبود وعبد المغيث

ربما كانوا من آثار العنج (بفتحتين) الأولين. والعنج أهل السودان فى الدهر السالف ، فى عيونهم عمق وسعة ، وعظام وجناتهم كأنهن بوارز ومنهن جمال فتياتهم ، وشعورهم لينة ، وما خالطها من القساوة من الدم الزنجى ، وألوانهم شديدة السواد يضرب إلى الزرقة ، وسمرة قمحية ، وفيهن الصفرة ، وهم الذين سماهم هيرودوتس بالاثيوبيين طوال الأعمار .

ويقال إن كهنة أمون فرّ بعضهم من تجديد إخناتون وتوحيده فآواهم الدامر .

فعلى هذا يكونان من عهد كهنة أمون . ثم لما عمت النصرانية العنج صار فى موضعهما قديسان . ولعل أحدهما الذى تبع النجمة عند مولد المسيح . ثم لما جاء الإسلام بيّن الشيوخ فى موضعهما صحابيين أو وليّين هما عبد المغيث وعبد المعبود . ويقال إن جارية سقطت فى بئرٍ فإذا بضوءٍ — أو وجه مضىء — ورجل يطعمها ويسقيها . ولما اهتدى أهلها إليها وجدوها بخير وقصت عليهم خبرها . فعلموا أنه ولى صالح من عهد الصحابة أو عهد قديم فبيّنوه ثم دثر ثم أبين َ وهو عبد المعبود .

وكون عبد المغيث شيخ زيانة من شواهد قدمه .

ويقال إن الزيانة أصلها ضرب من القرّبان والضحية . وكان الناس فى أيام الشرك والوثنية الأولى يقربون الضحايا البشرية إلى الآلهة. من ذلك ما يذكر من أن أهل قرطاجنة كانوا يضحون الأطفال لملتوّخ .

ثم جعلوا عذرة َ العذارى مما يضحى به مكان النفس الآدمية. فصارت الفتيات مما يفتضضن َ فى بيوت الأصنام. ولا ريب أن

دهورا سالفة كانت تذبحهن مبالغة فى تقريب العذرة • والوأد من هذا أو قريب من مذهبه •

واستبدل الشعر فجعل مكان العـذرة • ومن أجل هذا ماكثيرا تجد الشعر يجعل رمزا للقوة • من ذلك خبر شمشون •

بل يبدو أن الشعر قد جعل مكان النفس أحيانا • مما يدل على ذلك أن قدماء المصريين فى دهرهم السحيق كانوا يضحون ذوى الشعور الحمر للقمح حين حصاده • فتكون تضحية الشعر نفسه حلت مكان قتل صاحبه • وأحسب جز النواصى عند العرب إذا ظفروا بأسير وعفوا عنه أصله من هذا ، يجعلون شعره مكان رقبته •

وإن صح كل هذا الحدس فتكون مواضع الزيانة كأنها قد تووررثت منذ عهد كوش والفراعنة • ثم لما جاء الإسلام تأتى دعـاته إلى تثبيته من طريق الاحتفاظ بمظهر العبادات القديمة ، بأن احتفظوا بضرائحها ومواضع معابدها • ثم حولوا كل ذلك إلى الاسلام أو ماينخرط فى العقيدة الاسلامية فتقبله •

والحلق من عبادات الساميين القديمة ولعل الفراعنة وكوشا والعنج أخذوه من أصل سامى • ولعل العنج من أصل عربى ثم خالطـوا بالنيل أصولا زنجية ونوبيـة •

ويروى عن السيد الحسن المرغنى رضى الله عنه ونفعنا به أن أرض شندى من امتداد الأرض المباركة التى كانت لثمود ، وهى أرض الله ، قال تعالى « فذروها تأكل فى أرض الله • » وعن ود الفكى على والفكى السيد ود الطاهر رحمهما الله أن الفصيل ، فصيل ثمود هرب إلى وادى الهواد وما حوله وتلك أرض العنج حيث يحتفر أهل الأحفار آثارهم •

وأنه ـ أى فصيل ثمود ـ سيبقى ما شاء الله ، حتى يتـأذن الله بخروج دابة الأرض فيكون هو دابة الارض ، قال تعالى:«وإذا وقع عليهم القول أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم » • وقـد يذكر أهل هذا الخبر أن البحر الاحمر لم يكن موجودا• أو حديثهم(١) هذا كان كناية عن يسر عبوره « حتى إذا كنتم فى الفلك وجريـن بهم بريح طيبة »

وفى الطبرى أن الفصيل صعد القارة (أى الجبيل الصغير) فارتفعت به حتى صارت جبلا فمات بها •

وفى تاريخ هيرودوتس (الترجمة الانجليزية) أن عربا مـن الاراضى الواقعة جنوب مصر كانوا فى جيش كسرى بن دارا الاول فى الحرب الاغريقية الفارسية الثانية قبل زمان المسيح بقرون•وما الارض الواقعة جنوب مصر الا السودان •

وأحسب أن هجرة جعفر بن أبى طالب والصحابة رضوان الله عنهم انما كانت الى سواكن فأرض النيل • جـاء فى السـيرة ان سيدنا الزبير رضى الله عنه نفخ قربة وعبر بها النـيل • هكذا فى السيرة • ولا أظن أن فى حبشة غندار وأكسوم نيلا يعبر بقربـة منفوخة وانما هى مهاو ومدافع • وما أشبه أن يكون المعبور نيلنا الاتبراوى أو الأزرق أو العدلاناوى ، أى النيل الكبـير • والله تعالى أعلم •

وبلغنى أن بشرق السودان اعتقادا شائعا بين الناس أن الزبير اجتاز بيلدهم وثم شجرة يقال انه ربط عندها جواده • وكان الزبير رضى الله عنه من فرسان رسول الله صلى الله عليه وسلم كما لايخفى

* * * * *

هــذا

وموسى العزب ، إذ يتحلف عنده معه أربعة من رهطه . اثنان أبوان واثنان كالابنين ، إذ هو لم يتزوج فيعقب . والنساء يقلن « الخمسة ال ما بيحملوا اللمسة » أى الخمسة الذين لا يحتملون أن يتهاون بقدرهم أحد ، فمن حلف عندهم كاذبا نكبوه .

ومواضع قبورهم وهى مصفوفة معا ، فيها كالدلالة على قرابتهم بالنسبة إلى موسى.موسى متقدم فى أقصى الجانب الغربى كموضع الإبهام من اليد . وأبوه وجده فى مواضع السبابة والوسطى على التوالى هكذا . وابن أخيه فى موضع الخنصر وحفيد أخ له آخر فى موضع البنصر .

والذى فى موضع الوسطى هو جده حمد بن عبد الله راجل درو بن محمد بن الحاج عيسى ود قنديل ود حمد ود عبد العال ود عرمان فيما ذكروا والله تعالى اعلم .

وحمد ود عبد الله يسمى ضمين الدامر . قيل ضمنها من الجن فلا يصيبون بها أحدا من بنيه ، ولا أحد من بنيه يصيب بها أحدا من الجن ، بأن يداوى ممرورا مثلا . وقيل ضمن شاطئها من التماسيح أن تخطف أحدا عنده والراجح أنه ضمين الدامر أى المدفون فيها، ضمَّتن جسدُه إياها . إذا أجداده مدفونون بدرو .

ودّرو جنوبى الدامر وهى الآن فى حيِّزه . وقالوا عبد الله راجل درو أى رجل لله دره فاختصروه ، وهذا من تخريجات الفقراء (١) كما ترى.وقال كروفورد فى كتابهعن الفونج إن «درّو»

(١) الفقراء أى العلماء الصالحون المفتقرون الى الله وفقراء الدامر علماؤها .

هى ملتقى أتبرا بالنيل وعنده أنها اسم الدامر القديم أو ناحيتها فيكون معنى « راجل درو » أى ولى الدامر وصالحها .

ومن أمثالهم :

يادر̃و جاك خير
جاك موسى ود تمير

أى جاءك يادرو خير وهو موسى ولد تمير . قالوا لما مات موسى ولد تمير ، غرب الدامر ، ارادوا ليحملوا نعشه إلى مدافن بالغرب، ناحية « سميح » مثلا . فثقل النعش حتى كأنه جبل وأبى أن يرتفع على أيديهم . فلما أقبلوه الشرق ، جهة در̃و ، طارو عبر النيل واستقر حيث مدافن درو الآن .

وزيارة عبد الله راجل در̃و يوم الأحد وهو مدفون فى مقبرة جده الحاج عيسى .

وفى مناقب الشيخ أن الدامر هو الدامر لفظا الثامر معنى . وفى قوله الثامر كالأشارة إلى تمير (كأنها تصغير تمر ولكن مكان الياء الساكنة بطح من إمالة) والتاء والثاء غير متباعدتين من حيث يسر صيرورة الثاء تاء .

وفى خبر الصالحة بنت أسد صاحبة المطمر ، انها حين تزوجها الفكى حمد ود الميدوب ، وكانت قد بلغت عمر سارة ، رأت النبى صلى الله عليه وسلم فأشار عليها بزيارة الفكى محمد ود ثـمَّيْر (ضـمّـَير بامالة الياء) فى وادى قباتى بسبع دمجات . فذهبت اليه وزادت عليهن سبعا فقال لها لاتأخذ إلاحقنا واحتلب لهاناقةفى قرعة وجلست على فروةله . وماهو الاقليل حتى قال لها : قومى ياالفقييره نجست الفروه . وذلك أنها قد جاءها الحيض . قالوا فقالت

للفكى حمد من بعد وكان مشغولا عنها بالذكر كما هى كانت ذاكرة أيضا : تركنا السنة . فرزقهما الله منصورا وهو جد حاج حمد ود منصور أمير الدامر الذى قتل رميا بالرصاص أوائل الفتح الثانى .

والشاهد ثمّير لقربها من تمير والتامر وليس المطمر من ذلك أيضا ببعيد .

وقالوا أصل الدامر من أن حمد ود عبدالله أقام به فقالوا حمد دامر أى أقام ، ينطقونها «دومر» بإمالة الألف نحو الواو كأنهم يجعلونه فتحةً بعدها واو ساكنة ، أو قريباً من ذلك لايبلغه . وإمالة الألف إلى الواو مروية عن العرب فى العصوْ ونهى ابن عباس عن كذا وكذا الحدَوْ ، أحسبه نهى عن رمى الحدأ . (جمع حِدْأة) وقالوا أصله من دامر الليل كله إذا أقامه عابدا وهذا كأنه من تخريجات الفقراء .

وما أشبه أن يكون أصل الدامر من الدميرة أى الفيضان . ذلك بأنه يصلها فيضان نهرين عظيمين : النيل والأتبراوى وهو ذو فيضان ضخم ، وقيل إنه وحده كان هو النيل الذى يصل مصر فى الدهر الأول الغابر جدا . وكان النيلان الأبيض والازرق محبوسين وراء خانق السبلوكة (وأصوب هكذا : السبلوقة) .

وزعم بعضهم أن أهل السودان الاقدمين نحتوا الصخر عند السبلوقة فجرى النيل الكبير — ومن أجل هذا قيل فى المثل : من سنة حفروا البحر ، فلو انهم لم يحفروه بأيديهم ما قالوا ذلك والله أعلم .

وإن يك كهنة أمون قد نزلوا بالدامر حقا ، فإنهم مما كانوا يصنعون

الفيضان بعد الفيضان . فيكون معنى الدامر على هذا ، صانع الفيضان ، أو مكان صنع الفيضان أو دار السقياء وهذا ليس ببعيد من معنى المغيث فى عبد المغيث ولا من معنى المقيت لأن الميم مضمومة فى الحالين والقوت من الغيث . وليس ببعيد من معنى الشامر .

ولعل العنج الأولين كانوا يسمون الشيخين أو قل الهيكلين بالمعبود والمقيت أو المغيث جهلا منهم بأن الله هو الذى ينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام .

ولعل الدامر اسم عربى صريح نقله العرب إلى النيل منذ دهر قديم . والراجح أن أكثر هجرتهم إلى السودان إنما كان من طريق البحر الاحمر رأسا . وفى جزيرة العرب فيما بلغنى موضع يسمى الدامر قريب من دومة الجندل . ومن عجب أن الدامر الغربى الذى ذكره بركهاردت اسمه الدومة . فتأمل .

ويقال للحبال التى ترفع بها أخشاب الدوم « دمير » . والحبال من سعف الدوم كما لا يخفى . فالدوم والدمير مرتبطان كما ترى والله أعلم .

وأبو موسى العزب ، الذى فى موضع السبابة هو على أب دامع (أبو دامع) ود (ابن) حمد ود عبد الله . سمى أبادامع لإدمانه البكاء عبادة وورعا . وكان له إخوة ثلاثة ، إبراهيم أبو الشضيفة القاضى جد القضاة . وعبد الرحمن أب شله وله عقب وقد يحلف به من غير ذهاب إلى بنيته وحامدأو محمود تيتا ، أصلها أحسبه تأتاء إلا أنهم يجعلون ياءَها كألف ممالة ، جد المحموداب أولاد تيتا .

وابناؤه ، أى أبو دامع ، أربعة هم موسى العزب هذا وكان عزبا وعيسى جدا العسياب أى بنو عيسى وحمد وترك بنتا هى مشاهى ،

ومحمد المجذوب • وينطقون الجيم ياء والذال دالا ويكادون يسكنون الميم الأولى من محمد ، وهو جد المجاذيب ، قيل قتل مع أحد الخارجين على الملك • وهو فى كتاب نعوم شقير محمود وهذا وهم • كما أنه فى كتاب بركها ردت المجدول ولا ريب هذا خطأ من الطابع إذ بى B وإل L تتشابهان فى خط اليد هكذا

وقد يكون مات بسنار والقتيل غيره • وعرف قبره بعض الصالحين بسنار عن طريق الكشف أو دلته عليه الحارسة •

وولد محمد المجذوب ثلاثة هم الفكى حمد ود الميدوب وأمه آمنة بنت اب راس الابراسابية وزار بروس الدامر فى زمانه أو نحو ذلك وأحمد ود الميدوب وعبد الماجد الضرير ود الميدوب• وأحمد وعبد الماجد الضرير شقيقان وهما أسن من أخيهما الفكى حمد وعبد الماجد الضرير أسنهما وأمهما فاطمة بنت حجر المحمدابية من حجراب (1) وهيب ، كانت تحت حمد ود على أب دامع وولدت له مشاهى • فمشاهى أختهما لأمهما • وتزوجها أخوهما لأبيهما الفكى حمد • فولدت له الفكى عبد الله النقر وأخاه محمدا راجل السفينة أم دير•(أى صاحب السفينة التى لها دير وهو الخشبة التى يجلس عليها الجالس فى السفينة تكون من طرف منها إلى طرف)

وعبد الماجد الضريرى « أب توباتا حريرى » هو الذى فى موضع الخنصر فى بنية موسى العزب ، القبر الثانى من الشرق ، وأقام غرب الدامر وبنى مسجدا آثاره ترى وله عقب باق بالدامر والأضية والفكى حمد ود الميدوب ذكره صاحب طبقات ولد

---

(1) اب : تقيد النسب ، الف طويلة وباء فان قلت عثماناب كان معناه عثمانيين وحجراب اى بنو حجر وهلم جرا •

ضيف الله وقد شاهده وذكر ابنه الخليفة أحمد أبا جدرى ويستدل من هذا ان أبا جدرى خلف وأبوه حى ، وهكذا سياق القصة المروية .

وكان الفكى حمد عظيم الصلاح والبركة حج وأخذ الشاذلية على الشيخ على الدَّرَّاوى وكان طريق أبيه القادرية وكان يعرف باسم « طيب النية »

قالت بنت الطيب ، إحدى بنات الطيب ودالأمين ودالفكى حمد(١)، وأخوات أبى القاسم الريس الذى قتل بدارفور أو بحر الغزال (الراجح انه قتل بالفاشر) بعد مقتل سليمان بن الزبير رحمه الله وانتقم من قاتليه جسى وغوردون وإسمعيل أيوب والخديوى أجمعين وقد فعل . قالت : « ببركة طيب النية ، نحن ، المكابرابية ، ان شاالله مالنا فيها ذرية » دعت بذلك حين الطيب ولد ود أحمد ود الميدوب وابنه عثمان تزوجا كلاهما اختين من المكابراب .

والطيب ود محمد ود أحمد موضع البنصر فى بنية موسى والأول من الشرق . وخارج البنية جده أحمد

وأما الفكى حمد فمدفون وسط الجبانة الكبرى وقبره ظاهر وعنده حجر أملس .

وكان بصيرا بنجارة السواقى ، أعنى الفكى حمد . وكان ربما تفقد سواقى بنى عمه وكان بعضهم له خصما فأصلحها فيسألون عبيدهم فيقولون : « أصلحها طيب النية » يعنون الفكى حمد .

وكان فقراء الدامر يحرسون القوافل فلا يُعْتَدَى عليها . وفى زمن الفكى حمد كانت الحراسة كلها إليه . وكان ذهب ابن

---

(١) أم هى بنت الطيب ود الفكى حمد ؟ الله اعلم.

له صغير مع إحدى القوافل يحرسها باسمه وكانت له عُصَيّة بيده وعرض له كبير المكابراب (أى بنى مكابر) فى وادى المكابراب (أى وادى بنى مكابر) • أحسب كان اسمه « دنبيل »

قالوا : وكان كبير المكابراب يمسح ساقه بالزيت ويمدها ، فإن مررت قريبا منه قال لك لقد ملأت ساقى بالغبار،أما ترانىمسحتها لألم فيها ؟ وساورك فقتلك ونهب ما عندك ؛ وكان له وجه من إفسادك زيت رجله بالغبار •

وإن مررت بعيدا عنه قال لك لم تبتعد عن ناحيتى كأنى مجذوم• وهب فساورك فقتلك ثم نهب ؛ وكان له وجه من إساءتك إليه بابتعادك عنه •

وكان فى القافلة خير كثير • وجاء دنبيل إلى الغلام فقال له :ــ

ــ ياود الفكى ، عماتك كتلِن الجِفّوف •

أى يابن الشيخ الفقيه إن عماتك يعنى نساءه هو (لأن مكابر جد المكابراب من أولاد عرمان كما عبد العال جد الفكى حمد من أولاد عرمان) قد قتلهن الجفاف من الدهن • كأنه يقول له نعلم أن لك ولأبيك حرمة ولكنا لا بد لنا من غارة ونهب • وضربه الغلام بالمُطرَق (أى العُصَيّة) وقال له : يامطموس وعن سبب كهذا كان يبحث دنبيل • فلم يكذب أن اخترط سيفه فقطع به رقبة الغلام • وأشبه أن يكون اخترط سكينه وسكين السودان كالسيف ، إنما هى مغوَل (١) ؛ وطعنه •

وكتف المكابراب كبيرهم وجاءوا به الفكى حمد فقالوا هذا كبيرنا فعل ما فعل وجئنا به لتقتله بابنك الذى قتله • وأمر به

---

(١) المغول : السيف الصغير ، وسكين السودان كالخنجر الرومانى .

الفكى حمد فأدخل داره • ثم أخرجه بعد قليل إليهم ، وقد حُلِقَ شعره ودُهِنَ وجعلت عليه ذريرة • وقال لهم الفكى حمد :

ــ هذا ولدى والذى قتله ولدى فما كنت لأثكل أثنين فى يوم واحد وعن ذلك مندوحة

وكان المكابراب قد جاءوا جلدين على العداوة فرجعوا وقلوبهم ندم مضٍ • وأمنت القافلة منذ ذلك اليوم أمانا كاملا لم تر مثله قبله • فقول بنت الطيب « بركة طيب النية نحن المكابرابية ان شا الله مالنا فيها ذرية » من هذا •

هذا ولايخفى أن قصة دنبيل من الأساطير ونحن نستبعدها لقرابة المكابراب بالفكى حمد ورحمهم الماسة • إلا أن الأساطير تروى على حالتها بلا تغيير كما هو معروف من مذهب الأدباء والعلماء ثم لهذه الأسطورة قيمة عظيمة لدلالتها على العلاقة القوية بين الفكى حمد والمكابراب حتى إنهم لو قد قتلوا ابنه لم يؤثر ذلك عليه ثم هى بعد تدل على عزة المكابراب وسطوتهم وفضلهم وحديث بنت الطيب كأنما هو رد أسطورى على أسطورة دنبيل كما ترى• هذا وقد ركبت بنت الطيب هذه إلى بحر الغزال فأحضرت يتيمه أخيها أبى القاسم • وكن قد خرجن مأتما كبيرا من بحر الغزال متنكرات فى زى الرجال ، حتى إذا جئن أرض العرب البقارة اتسبن • وكانت على رأسهن امرأة تدعى بنت إدريس • فأشعلن الأرض بالبكاء على سليمان وصحبه • وكان ذلك مما مهد لنجاح المهدية ونصرها •

وكان للفكى حمد سبعةعشر ابنا ذكرا وبنتان رقية وحليمة والى رقية ينتسب أربعة رقية ويقال قتلوا بالكتوَيْنب وقبورهم ظاهرقبالدامر

تزار • والكويب مقرن أتبرا بالنيل وهو غير بعيد جدا من حيث دفنوا وقد يكونون ارتثوا فأحتملوا إلى الدامر فماتوا ثَم • وقد يكونون ماتوا بالكويب أو دونها ثم احتملوا ليدفنوا فى جبانة آبائهم • وكانت رقية بنت الفكى حمد عند الفكى عبد الله ود عيسى ود على اب دامع أخو الميدوب الكبير جد العيسياب وله عقب صالح منهم آل الفكى ود عبد السلام بكنور • واختها حليمة بنت الفكى حمد كانت عند الفكى عبد الوهاب تزوجها بمهر عظيم وهو جد الوهاهيب •

وابناء الفكى حمد هم الطيب والطاهر وقمر الدين والأمين وهؤلاء أشقاء والقرشى والتهامى والمدنى وعلى الصادق والأزرق وامهم بنت سَوَ ينكِت وأحمد أبِ جدرى (ابو جدرى) وشقيقه الأحمر وأمهما أبراسابية • أبوراس جدها الأكبر ابن الحاج عيسى ود قنديل • ومنصور(١) والمكى (٢) ومصطفى وليسوا بأشقاء • والفكى عبد الله النقر وهو أكبرهم وأخوه محمد راجل السفينة ام دير • وقيل سمى محمد راجل السفينة أم دير لأن أباه بعثه فى أمر رقبة أو خصومة (أى ذلك كان الله أعلم به) وركبوا مركبا • وكان صغيرا فتهامس القوم : لو لم يتهاون بنا الفكى حمد مابعث معنا الصبى؟ فقال لهم : لست بصبى فقد شهدت سفينة نوح • نفعنا الله بجاهه • ومات صغيرا •

ومن لا يَعتَبِطْ يهرم ويسأم   وتسلمه المنون إلى انقطاع

والطيب ود الفكى حمد من عقبه الطيب « راجل العلا مه» بتشديد اللام صاحب الراية أيام المهدية •

* * * * *

(١) منصور امه بنت اسد ، عمرابية .   (٢) وام المكى « نية ».

ولو كان جده عبد الرحمن ود الطيب ولد ود أحمد تحت راية شيخ العلامة هذا لكان نجا من رصاص أبى طليح .

ـ عـوك ، روحة ناس ابوى وعبد الرحمن اخوى

هكذا قال جده عبد الله . أى كما هلك أبى وعبد الرحمن أخى

وكان عبد الرحمن شقيقه وكان حافظا . أما هو فقد كان أمياً . وانما كان يحفظ يس ويقرأ بها العدد . وكان أمنع من كليب وأحمى من مجير الظعن

وكانت إليه سدانة صلاة العيدين وكانت تقام تحت سيالة داره ولايجتاز بحماها من أمامها مجتاز وخلف صفوفها قوم آخرون لايصلون يضرحون عنها بالحجارة والدراب يبتغون بذلك عندالله الثواب . وكان بنو ود أحمد فرسان عبادة وأهل سقاية ورفـادة

هـــذا

والطاهـر بن الفكى حمـد له عقـب بنـات . وقمـر الدين أخذ الشاذليه عن أبيه وأخذها عنه ابنه الشيخ محمد المجذوب وأمه من حضور المتمة . ولقى السيد محمد عثمان الختم والسيد أحمد ابن إدريس وجاور بالمدينة تسع سنين وأخذ عن الشيخ الأزرق ابن أحمد أبى جدرى جد الأزارقة بالقضارف،وكان فقيها مقتدرا. وأخذعن الشيخ ابراهيم السويدى بالمدينة،أخذ عنه الطريق الشاذلى. واجتهد فى الطريق الشاذلى فألف موالد اتبع فيها نهج البرزنجى ونظم قصائد فى المدح والتوسل . وبين منهجه ومنهج السيد محمد عثمان وأضرابه ، رضى الله عنهم ونفعنا بجاههم اجمعين ، تشابه مشعـر بمباراة أو مجاراة . وفى أسلوب الشيخ محمد المجـذوب حلاوة

وإسماح فى عاميه وفصيحه ومايمزج فيه بينهما • وكان مذهب الشوق والوجدان يغلب عليه • قال رحمه الله :

لقد طال شوقى ياأمينى لطيبة أشخصها طورا وطورا أناظر
تذكرت ياخلّى ليالى مبيتنا بمسجدها والقوم باك وذاكر
تذكرت ترداد ى أخى بين روضة وبين دكاك الزيت وهى أواخر
وإن لها نوراً إلى العرش ساطعا تشاهده أبصارنا والبصائر

وقال رحمه الله :

أراك حزينا منك فاضت مدامع أمن نسمة هبت أم النور لامع
ومالك مهما ان تذكرت جيرة بشعب بنى سعد جفتك المضاجع

ومن ديوان الشيخ المجذوب تعلم العربية وقرأه وهو أيما صغير وكان يلذه منه إنشاد المربعات العشر

أياذا القبة الخضرا وياذا الروضة النضرا
ويا من قبره عطر أنل مجذوبكم وصلا
أياذا البضعة الزهرا وياذا الحلة الحمرا
ويا من مدحه تقرو بكتب الله مذ نزلا
أيا يس يا طه أيا حم يا حاها
لنا فى حبكم وله فأسقوا ماءكم علا
مديح المصطفى شغلى وشغل أبى كذا أهلى
ولى فيه نعم أمل إذا ما خافت الفضلا
متى فى طيبة نركع وفى روضاتها نرتع
ويحوينا بها سلع وأحد فوقه نعلا

* * * * *

ولكن أولاد دنقلة كانوا يجتمعون كل ليلة خميس وأحد ويقرأون المولد العثمانى ولا يعطونه فرصة ويترنمون ، والأخرى نونا لأنها نصف دائرة الأكوان ، وعنقه جيد دمية فى صفاء الفضة بَيَضَان

صلوات الله ما هبّت صبا   لرسول حلّ فى وادى قبا

قلع الباب وأردى مرحبا

ويا ألله يا ألله

تفله يشفى جميعا يا فلا

* * * * *

فى لجة أمسك فلانا عن فلِ

تبقلت من أول التبقل   بين رماحى مالك ونهشل

* * * * *

ولماذا لا أقرأ أنا مولدنا معهم ، أفتتح الإنشاء بحمد من الله العظيم اليه ، معترفا بالعجز قائلا لا أحصى ثناء عليه ، إذ ولتد بعجائب قدرته الباهرة ، إنسانا عين المخلوقات الباطنة والظاهرة ... والآن إذ ذكرنا سيرة المحبوب ، فلنرفع أكف الاحتياج لمالك خزائن الغيوب

صلينا مشتاقين   لسيد الكونين
صلينا مشتاقين   لقرة العينين

يا ثقيل يا شافع (١)

وذهب التلميذ الرباطابى يوم الجمعة الى السفرة (غرفة السفرة ،

---

(١) اى يا صغير لان الصغير اذا مات شفع لوالديه .

المائدة) فوجد أولاد دنقلا يأكلون فسيخا فولى هربا ـ فندى فندى اولاد دنقلة يياكلوا لن فى رمته

يكاد يميل قبل الهاء كما يفعل الكسائى فى رَحْمَةَ ، بل يكاد يخترم الميم قبل أن يصل الهاء ويشمها شيئا بين كسر وشد : فى رم

* * * * *

ـ فسيخ يا ولاد الكلب

قالها لما جاءه إشعار الجمرك مع صفيحة فارغة . فتحنا هذه الصفيحة ووجدنا محتوياتها سمكا منتنا قد فسد بعد التحليل الدقيق ومرسلة لكم الصفيحة أفيدوا الاستلام جمرك جلالة الملك.

ـ فسيخ يا ولاد الكلب

لقيه لى أستترا ميدان التحرير بعد دهر وزوجة شابة أوربية معه

وإذا وذلك لامهاه لذكره والدهر يعقب صالحا بفساد

* * * * *

وكان أول لقائه له بأكسفورد بعد ليلة سافر ثلثها الأخير البارد ثم دلف إلى حيث ربة المنزل التى كان سينزل عندها فلم يجد ترحيبا كلا . عنوان خطأ . ربما كنتَ لصا . وعاد أدراجه يستعين بالشرطى واجتهد بلا جدوى وعاد إلى أريكة خشبية بالمحطة يشاركه فيها آخر، كلما همَّ بنومة اصطدما

ـ متأسف جدا

ـ متأسف جدا

ولقبل ساعات كان فى الدفء .

ونصف الليل جاء الفرّاش . ميعاد قطارك .

وآخر عهده بها يوم ينهمر المطر ساخنا فى منتصف الصيف ثم أخلف وعدها مرتين « وما أخلفنا مَوْعدك بِملْكِنا ولكنّا حملنا أوزارا من زينةِ القومِ فقذفناها »

وماكان أغناه عن ميعاد القطار ومغادرة الدفء إلى مركبة كل أسبوع تقصد قرية بالريف البارد نائية والحديث الباهت عن المطامح الوطنية والاستعمار حديثا ذا مجاملة متكلفة من جانبه وجانب مضيفه أما ربة الدار فكانت أعنى بألا يأكل الزوج وضيفهما أكثر مما ينبغى .

* * * * *

— نحن لا نتحدث عن السجون فى منزلنا

وريعت المسكينة الساذجة من جفاف لهجتها . ولقد كان رآها فى أهلها مع الخس والشرائح والشاى ، وما كانت هذه النحيلة المتصنعة لتساوى وزن خردلة فى نظر أمها ذات الشكيمة والسطوة .

— نحن هنا على الطبيعة . تنزل الصباح وتصنع لنفسك الإفطار . ونزل وصنع لنفسه ثلاث بيضات فى زمن التموين

— مامى مستر .... أكل ثلاث بيضات

كانت تلبس أبدا بنطلونا وتتكلم بفم موصد وتحاسبهم بأجر زائد تضيفه على ثمن الغرف إذا زيروا . ولكل كوب شاى ثمن . وتوقد النار لماء الحمام مرة واحدة كل أسبوع فيتسابق إليه صانعو خزانات المستقبل ومدبرو سياسة إفريقية . وإذا استزيدت يوما آخر توقد فيه للحمام — إذ كان ما تسخنه له ذلك اليوم الواحد لا يكفى — قالت : فى بلاد التبت يستحمون مرة واحدة فى العام .

وشكا أحدهم البرد الزمهرير • وكانت خرجت لتحتطب • وكان تجمد الماء قد خرق المواسير أو جعلها تنفجر •
وكان يحمد للقطار الكهربائى المحلى دفئه
دق دق دق دق دق دق دق

* * * * *

The rainbow comes and goes
And lovely is the rose

وكانت إذ جلست للانترفيو متوردة من لفح الريح كالوردة•وكانت كأن وجنتيها تأتلقان بوردة مطلولة • وكان لها ثغر انثى • وجعلت وجهها صارما للأنترڤيو • وتخنّت من صوتها وهى لفّاء •
وقالوا لها ههنا فندق صغير
فقالت أريد لآمن مع الحريم

* * * * *

وكانت قد صفقت شعرها تصفيفة جد إلى أعلى ولبست بذلة مقابلة وقالت سأذهب إلى نوتنجهام للانترفيو
وفيها غابة شيروود وربين هود

* * * * *

وأنا سأكون الأول وكان الثانى على طوله وكبر سنه فندى فندى أولاد دنقلة •• وشكا أنه يحال بينه وبين قراءة مولده ومديحة • وجاء ضابط الداخلية التى تؤمن بحرية الأديان

ردّف السـلام للنبى الإمـام

وانتقد له ضابط الداخلية :

أنام به واستيقظن بحبه ويعرفه قلبى ولبى والطرف

ولم لا يكون هذا فعل أمر مؤكد فيه التفات من التكلم إلى الخطاب

* * * * *

ـ عوك روحة ناس ابوى وعبد الرحمن أخوى

وكان السيد الحسن «ابجلابيةنور» نزل فى داره • صار إليه بعد إقامة عند ابن عمته الفكى أحمد ود جلال الدين على الأرجح •

وقد ولدنى الديوان الذى به نزل السيد الحسن

وقد حمله السيد أحمد بن السيد محمد عثمان بن السيد الحسن رضى الله عنهم • توفى أحمد أفندى والسيد أحمد فى يوم واحد فورد ، تاكسى • لاريب • هل له تندة • العشر والدوم (١)

وهذا كأنه ليلة الخميس ، وهذه حلة الختمية •

* * * * *

ـ توت توت توت

وقف الامريكانى ينظر إلى جناح الطائرة والزيت ـ أو هـو بنزين ـ ينبثق جدولا من ثقب الجناح •

صفر ليدل على عدم الاكتراث وليطمئن الراكبين • وقد ركبت امرأة خاساوية أو نحو ذلك ذات ثوب فضفاض ، لو خشيت أن الطائرة ستحترق لملأت الدنيا عجيجا •

وإنما نبهته «تسغاية» بعد أن نبهها «تسفاى» إلى انبثاق زيت الجناح

---

(١) ضربان من الشجر •

« تسـفاية » يا حلـيلا (١)
قط مابنشـوف متيـلا (٢)
متـــين نلقاهـــا التّريلـه
والســفرة معاهـــا عديلـة

وهبطت « الداكوتة » فى مطار «تسنى» وليس بمطار ولكن طريق مبين من تراب . كانت جدته تقول «سَهَنَى» . وفى كسلا الدوم. وهذه جبال ليس أحدها جبلى كسلا . لشد ما يأمل أن يراهما

خليلىَّ هبّا طالما قدْ رقدتمـا أجدَّ كما لاتقضيان كراكما
ألم تعلما مالى براوَنـد كلهـا ولابخذاق من صديق سواكما
أصب على قبريكما من مدامة فإن لم تنالاها تروِّ جثاكما

قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم حين انتسب : آلشـاعر ، يشير إلى خبر سامة بن لؤى

عَيْنِ بكّى لسامةَ بن لؤىّ علقَتْ ساق سامةَ العلاقة
رُبَّ كأسٍ هرقتَ يابن لؤىٍ حذَرَ الموتِ لم تكن مهراقه

قال التيجانى يوسف بشير

قطـرات من الندى رقـراقـه يصفق البشر دونها والطلاقة
والعجز ضعيف غامض . وقال عدى بن ربيعة المهلهل

ما أرجّى فى العيش بعد ندامـا ى جميعا سـقوا بكأس حلاق
أى المنيـة

ضربت صـدرهـا الىَّ قالـت يا عدياً لقد وقتـكَ الأواقى

---

(١) كلمة حليل سودانيـة كانها فى اصلهـا يا احيلى لها فى او نسبـة الى حليل الذى اضاع مفاتيح الكعبة ، والله اعلم .
(٢) متيلا : مثيلهما .

ـ عندنا الكوليرا والطاعون والجدرى ولكن ليس عندنا الحمى الصفراء

ـ لا ، لانعطى البيرة للمسلمين فى ليالى رمضان

ـ وكيف عرفتنا مسلمين

ـ أعرفكم من وجوهكم

« والخيل والحمير والبغال لتركبوها » .

والإبل الضخام والجواميس والمعزى السود والسراويل التى تتموج مثل أزر الهندوس

ـ كلوا

وكلما أحضر الطعام ـ وكان شيخا يحرس المصحة ـ قال كلوا ومد أصبعه إلى اللحم والى الزبد وإلى الخضر

وحضر اللحم

وحضر العجم

والعجم نظر

والعجم لمس

والعجم وضع اليد ولمس

لمس اللحم

والعرب أكل

والعرب « طرش »

والأحرار من شيوخ العربية وأفنديتها قالوا كتاب المستر سكوت طريقته جميلة

أين امرؤ القيس والعذارى إذ مال من تحته الغبيط
له كميتان بنت كرم تزبد والسابح الربيط
استعجم العرب فى الموامى بعدك واستعرب النبيط

« ومكر اولئك هو يبور »

* * * * *

قالت له هلا اتخذت لنفسك فتاة وقد كرهت شكوه البرد،وانكسر الصحن فحز كزازة ذوقها المتنطس : « هذا لم يكن لـه لزوم » وابتسمت بخد ذابل وأسنان ثعبان .

كان أكثر ما يلقاه فى قطار العودة . هل تمهم هذا ؟ قالها ملاطفة بعد طول ما التقيا فى الدروس وقرأ أوراقهما عن بنات شرلمان اللائى كن يعشن فى انحلال شديد . شد ما دهش عندما ناقشه فى ثاءات لا نجلاند وياءات شوسير

« إن سومر سيزون هثو ن هوت واز ذو سونا » تباسمت إليه الفتاة الفرعاء وقالت يقولون إنك تتقن غوامض هذا النحو المتوسط وما كانت قد تحدثت إليه من قبل ولا البولندية واضطرب عن أن يجيب ، كيف يجيب ؟ هذا لم يكن فى الحسبان ، « وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فعل باشياعهم من قبل إنهم كانوا فى شك مريب » كان كاضطرابه إذ قدم الفانوس السحرى فطلب منه وهو صغير قصير أن يبين أسماء بعض الصور . هذا أذكى تلميذ

عندنا ... وخرج ونظر فلم ير شيئا وذكر القصة التى يدخل فيها الولد جحرا فيجد فانوسا سحريا

ـ دا الجحـر

كسفة ! لقد خيب أمل أستاذه كما خيـب أملها وكان آخـر حديث ...

ـ دق دق دق ددق

ـ الكفر جاتهـم　　من الصمايد

بطلوس عـساكره　　مالن عدايد

كتلوه جابـوا ال　　كلب اب قنايد (١)

أسد الله البيضرع ـ ينهر فى المجمع ـ كم عوقا فى سراع .

من شوفتـه اتفرزع

* * * * *

وليس كأولاد الماحى حين ينقرون طارهم من مادح ولا كمديـح حاج الماحى من مديح

لم تر عينى مثل يوم دنقله

ـ دحين ضنقل دا ماهو عبد البطلوس .

ـ شبشوبن تهَّد　　جايات على المشهاد

أى شابات ناهدات ، كرر الشين والباء لإظهـار معنى الشـباب

ـ دارة وجوهن　　على القمر تنزاد

---

(١) أى القلايد .

ما ضفرن نسـعة   وما مَشَّطن بيهمَّاد
سابلات شعورن   واكفالهـن قعـاد

هذا فى وصف الحور العين وتطرب له النساء

وقد جاءوا للتسجيل فى الإذاعة فلم يأبه لهم أصحابها إذ قد ذهبت الأصالة فى المديح وغيره

* * * * *

وكان ناظر المدرسة يعرف الشيخ المجذوب ويزوره وإن جهل مولده هؤلاء . هذا وأسقطه لوريمار من الشجرة التى صنعها فى كلمته عن المجاذيب فى مجلة « السـودان فى وقائع ومدونـات » Sudan Notes and Records قال إنهم سحرة «آلسحر إن الله سيبطله » ـ وبطل لوريمار وإنما كتب بجهل حرصا منه على أن يكون مفتش مركز قد كتب .

والعجب له كيف غفل عن أظهر بنية بالدامر فلم يهتد ، وهـو الحاكم ، إلى من يكون صاحبها والناس كلهم تعرفه ولو قد سأل لدلوه .

وسماه ترمنجهام محمد الصغير ؛ خلط أمرين ، ظن أنه محمد أبو صرة ، فخلع عليه لونا من خلافة محمد أبى صره بن أحمـد أبى جدرى بن الفكى حمد ، وأراد أن يميزه من محمد المجـذوب الجَد ؛ وكأن من تلقى عنه قال له الصغير والكبير ليميز بينهما . وتوفى بالدامر وبها قبره ، وهدمت قبة قبره فيما هدمه كتشنر من القبب ؛ وقيل كان الشيخ يكره أن يدفن فى قبة

وقد هدمت قبة المهدى بأمدرمان لإضعاف الروح المعنوية كما زعموا . وقد هدمت قبة السيد الحسن من قبل .

وعين توتيل رواء .

* * * * *

ويقول بعضهم أبوكرام فى جبل مكرام . ويسكنه المرغيب . وأهل الصعيد يقولون « المرفعين » . وأهل كسلا يقولون : «الكراى». فهل جبل مكرام أصله « أبوكرايم » جمعت « كراى » بالكسرة والميم وهما أختا الياء والنون فى الجمع . يقول العبرانيون كروبيم وصرفيم ولو كانتا عربيتين لكانتا كروبين وصرفين وهما ضربان من الملائكة المقربين الشرفاء .

وتكروف بئر وليست بعين عندها العرب يمتحون

راعه جفافها الكالح بعد خضرة الفدادين واللعب فى العراء «بنْدنان قيل » ــ ضرب من الجنادب أو الحناطب الطيّارة ، ثخين الجناح، الكبير منه أحمر الجناح ثخينه قويه ، إنما هو مادة قرنية صلبة . والضرب الصغير منهأخضر الجناح فيه خطوط صفر . كانوا يقشرون فصوص قصب الذرة الناشفة ويصنعون منها حلقات ، ويقدون هذه الحناطب بالشوك ، يلصقونها به إلى القصب المقشور . ثم يجيئون بأعواد مشتعلة ، فيدنونها منها ، فتطير زن زن زن .

وفى أوروبا يفعلون نحو ذلك بالحديـد فيطـير زن زن زن ولعله يتألم ولا يشعرون بألمه كما كان هؤلاءلايشعرون بألم الحناطب

ولاتقل إن الحديد جماد لايتألم،ففى الأخبار أن الحجر حين يلقى فى جهنم فيبلغ قاعها ويلذعه حرُّها يصرخ بصوت مسموع . «يأيها الذين ءامنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة

عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون مـا يؤمرون » صدق الله العظيم •

وبعض النبات يتألم ويبدو عليه • وفى الأمزون فيما يزعم شجر يفترس الناس • وسيدة أمريكية لها أزهار تطعمها الذباب ، تمر عليها كل يوم بصندوق لها فيه زنابير حبائس ، فتلقى ت كل كم زهـــرة زنبورا فينطبق عليه ويمتصه • والسيدة الرقيقة بذلك لاهية ، وتجلس للغداء إلى لحم ثور أضجع وجُزّ ودجاه • يفعل هذا المسلمون • أما اولئك فيضربون رأس الثور بساطور أو يطعنون دماغه بإشفى من الكهرباء •

* * * * *

ـ الله يا سيد

ـ سيد سـيـودة الله يا سيد

ـ ياب عاشه قودا الله يا سيد

وبيدهم الحبل يجرون المركب عكس التيار • وأبو عائشة ينجدهم بصلاحه الغمر كما قد أنجد أهل تكروف إلى الجبال إلى سواكن نفسها

للنبى صالتينا للنبى صالتينا

للنبى صالتينا الرسول هبتينا

أصل السين صاد « صلينا » ولاتظهر سكون الياء ولكن تميـل فتحة اللام

خلى بالك ليتا

لم أمين عليتا (لم فعل أمر من لم بالتشديد)

لينـــا فيـــك أمنيـــة
بلغــــــه الأمنيــه

وأمين هذا تلميذه وسمى به حفيده أمين بن أبى بكر وأمين أبن أبى بكر ، من الهدندوة الأخيار ، هو ابن عائشة بنت الشيخ المجذوب

* * * * *

وكان مجذوب بن أبى بكر مــع الفرقــة التى وصفها تشرشــل حين التقت خيل كتشنر برجال عثمان دقنه ، «خيل اللات بخيل الله» وشهد جديدا مع الخليفة . وبها استشهد رضى الله عنه
وليس للشيخ المجذوب فى سوى عائشة عقب .

* * * * *

ومن أبناء قمر الدين بن الفكى حمد ، الطيب وله الشيخ ود الشيخ الطيب الشاعر ، مدح المهدى بكلمة منها

طــالع السعد قد بــدا والكمــال

وله ديوان قيل عند المكابراب . وإلى وزن قصيدة منه فيما ذكروا نظر الشيخ ود الشيخ الطاهر فى كلمته :

ضوء برق تلالا   فى الدياجى خلالا
نحو نجد توالى   واعتلى واســتطالا

ولما تصدح بها الأصوات الجهيرات فيما بين الدامر والفريــع .
والشيخ الطاهر المجذوب بن الفكى الطيب بن قمر الدين ، ابن أخى الشيخ المجذوب ، وهو مؤلف المناقب وشيخ عثمان دقنــه وذكره نعوم شقير تلميحا ، ونسب اليه هولت غير قليل من قيام

ثورة المهدية بالبحر الأحمر . وعسى أن ثار عثمان وبنو دقنه فآثر الشيخ الطاهر الحفاظ وغادر الدور والقصور بسواكن إلى جهاد يوم عبوس قمطرير بهندوب وأخواتها

أذكرت حي سعاد والمستارا   وطفقت تندب بعدها الآثارا

* * * * *

والأمين بن الفكى حمد له ذرية عامرة ونسب واشج مع سعداب شندي . وكانت حال ابنائه بعده أشبه بحال الملوك.وكان الصديق ابن الأمين صاحب تدبير . غادر الدامر لما يئس من بنى عمومته إذ لم يقبلوا نصحه وصمموا على مصادمة الأتراك .

قال لهم الصديق وقد كان ذهب إلى بربر وعلم أن الملك نصر الدين قد سالم الأتراك : هولاء القوم عندهم السلاح النارى ، فإن كان لديكم سر تمسكون به النار وإلا فالمسللة .

وكان فى القوم رجل من المحيسياب فتهكم وقال : « أهذا كلام شبانكم يا أبناء المجذوب ؟ » ... « أها يا ولاد الميدوب ، دا تراه كلام صبيانكم .. »

فأثار حفيظة القوم وضرب النحاس . وكان الخليفة الفكى محمد أب صرة ود الفكى أحمد أب جدرى ود الفكى حمد ود الميدوب وجاء « الأناقيب » على الجمال . « الانقيب » المغنى كأنها من النقيب أو النجيب أو التلقيب أى صاحب التقليب الذى يطلق بشعره على الناس الألقاب . يقولون اسم « انقيب » أى لقب.وهاج له الفكى جلال الدين فيما ذكروا وكان بيده السيف والسبحة مكان الدرقة ، والطيب ولد ود احمد وكان بيده البيرق .

ـ اتـو اولاد بيرق

* * * * *

وكان الطيب ولد ود أحمد يركب فى بنيه الأربعة فخشى العين فصار يركب مع ولده محمد وحده . وكانت فرسه تدعى « ام دَيَّة » أى ذات الصوت ذى الدوى . وكانت أمه وام أختيه فاطمة بنت ود أحمد وكلثوم بنت ود أحمد ، جباراابية . قالوا وما أغبته المسوح ليلة واحدة حتى أدرك فنشأ قوى البنية . وكان لا أخ ذكراً له . وكان أبوه الفقيه محمد ود أحمد ود الميدوب فريدا لا أخ ولا أخت . وكان رجلا فذا . وكانت أمه فيما ذكروا من المحس ، بنت كذا أغا من دنقلة . وكانت حلة الدناقلة والعبابدة جنوبى بيوتهم . وبها كان نزل بركهاردت . والفكى الكبير الذى رآه هو جلال الدين بدليل أن اسم أبيه عبد الله ، أى عبد الله النقر ، وقص القصة المعروفة : أن امرأة افتقدت عَبُّورها فذهبت إليه وشكت واتهمت أحد الناس فجىء به إليه فأنكر هذا فقال الفكى للمرأة ، هل لعبورك اسم تعرف به ؟ فقالت نعم . فقال لها ناديها . فنادتها فصاحت « باع » من بطن الرجل لأنه ذبحها وأكلها . أو كان خائفا جدا ـ كما قال بركهاردت المنكر الدقيق الملاحظة ـ فقال « باع » من شدة الخوف.وفى هذا بعض التأويل لما مرَّ بك آنفا من كرامة الشيخ عبد المعروف « ال قلب الزول خروف » الزول الإنسان باللغة العامية وأصله الإنسان الخفيف الظريف كما تقول جنتلمان

قطعته بفتيةٍ أزوال   على مهارى رُجَّف الإيغال

وأفسده الحكام الإنجليز فقالوا «زاول» بمد الزاى وسكون الواو

يريدون مدلولا كمدلول «نايتف» وقد أفسدوا من قبل «جنتلمان» حتى صارت «جنت» و «جنتس» وتكتب على المرافق العامة . وكان مانهايم يهوديا قصيرا يحاضر عن نظرية « الجنتلمان » ، وأصل ذلك في الارستقراطية والفروسية . وفيه نظر إلى ارسطوطاليس وكان الفكي الطيب ولد ود أحمد أصر على أن يسمع بكاء بناته له وهو حي . فركبن الخيل وانكسرت القبائل .

ورأى حفيده ابنته أخرى بناته عجوزا يجاء بها من ناحية القاش بكسلا . وله جأش وهدير واشجار وغثاء وركام . والنساء عند شاطئه يجمعن « الشاف » و « الكليت » و « القنقليس »

وما الفرات إذا جاشت غواربه ترمي أواذيه العبرين بالزبد
يوما بأجود منه سيب نافلة ولا يحول عطاء اليوم دون غد

وكان ذلك الحفيد على كتف رجل يعبر به القاش خوضا . وبعض الناس على عناقريب (سرر) يحملها رجال يعبرون بهم القاش و نفرت نفسه من ذلك . كأن أهله نفروا من ذلك وتحدثوا فهو يذكر ما كان من من نفورهم . كأن العناقريب جنائز .

وأحد العناقريب العنقريب وهو سرير خفيف من خشب منسوج بالحبال من سعف الدوم[1] ويقال للدب الأكبر من نجوم السماء العنقريب ونبئت أن هذا اللفظ عينه عند أهل سقطره . وهم شعب سامي الأصل . (ولا أرتاب أن لغة مروى القديمة من أصل سامي يمني السنخ وانه أعلم .) وخلف العنقريب أخواته

(١) ومن السيور ويقال له عنقريب القد وكان للعرس .

يبكين كأنه جنازة ويقال لهن « بنات نِعاش » أى بنات نعش ، قال أبو الطيب :

كأن بنات نعش فى دجاها خرائد سافرات فى حداد

وفى المثل « بنات نِعاش شيلن نعاش ختتن نعاش فوق النعاش » وهو مما يتحاجى به الأطفال مثل «وقبر حرب بمكان قفر ».وأخرى « بنات نعاش » هى الجدى ويقال لها العريجاء كأنها عرجاء تحاول إدراك صويحياتها فلا تستطيع

أرأيت من حملوا على الأعواد أشهدت كيف خبا ضياء النادى
جبل هوى لو خرّ فى البحر اغتدى من وقعه متتابع الإزباد

ــ هاى ياود الميدوب انت بتركب كدى

وكان محمد ود الطيب ولد ود أحمد قد شكا من أن البقارة أخذوا فرسه وأمته وكان صحب المهدى من الغرب

ــ هاى نديك عشر نسوان

ــ مانى منافق يا سيدى خليفة المهدى . داير خادمى وحدها . وغمزه الناس . وكانت نشوة الخليفة لركوبه أكبر من أن يفطن لانفعاله وردّ له ما أخذ منه ، وأسر بالنجومية وعرفه الزبير

ــ الشيخ بكتل بكتل بكتل

أى يقتل يقتل يقتل

هذا صوت النحاس ويسمى أيضا « الدنقر » بكسر الدال . لفظ اشتقاقه صوتى الأصل . أونامابتيك . كلمة نادرة فى عجمتها وهى الآن على لسان كل نابت .

ــ نادى شيخنا البان

ابوى صمد الدنقر الرطان

يا منادى ناد   نادى شيخنا اليوم
أبوك يا الحاج   جندى جندى القوم   يامنادى
ــ أنا المرابط أنا المجاهــد

* * * * *

وأجمع الفقرا على مصادمة التركـ من دون سر يمسك النار . هذا كان قبل إحراق الملك نمر إسمعيل ابن الباشا بشندى على الأرجح وإلا ما كان الصديق ليأمن حين صار إلى قوز الفونج وماكان ليأمن أيضا الذين بقوا بالدامر من اولاد المجذوب ومن بنى عمـــهم . وقالوا إن ام إسمعيل غضبت حتى لم يرضها إلا ذبح الجعليين بيديهــا وشردوا وبيعوا ونكلوا كل تنكيل . وقد فطن هولت إلى أن فظاعة إنتقام الدفتر دار كانت مما أوغر الصدور على الترك وهولت أدق فهمـــا وأعمـــق نظـــرا فى هذا الموضـــع مـــن كثير غيره، والراجـــح أن حـــرق اسمعيـــل لـــم يكـــن بتدبـــير مـــن المـــلك نمـــر . وفى مذكـــرات بركهـــاردت مشـــعر بذلك وقالوا إن المنشتح والمساعد وليا تدبير ذلك . ولعل من بطانة إسمعيل وكان مترفا متغطرسا من شاركهما أو يسر لهما الأمر . قالوا طلب اسمعيل جوارى . وجاءت فتاة من بنات الملك نمر لها رحط (أى إزار سيور) فقال اسمعيل « مثل هذى » . ولعل هذا الخبر تقريب وتمثيل لغطرسة إسمعيل

دون عَلـَيّتان خرط القتـــاد

وأرسل الدفتر دار لكل قبيلة أن تعطى الجعليين ضحوة قتال إذ هم منكسرون فارون مع الملك نمر .

* * * * *

ووبخته أخته فيما ذكروا : أتريد أن تفر كما فر نمر

وغنى « الانقيب » يدعوه إلى الحكمة :

« ياب عَدّ و ا فى الهوبجي واب نجدة ئى الريف »

ــ مرقو اولاد جعل ال كلهم كنز ام

وين عريس   الدنقــر الرز ام

*   *   *   *   *

ووقف الشبان صفا طويلا واحتزموا وكشفوا أعلى أجســامهم ليأخذوا الســوط

ــ ضرب السوط ما هو حار

هى كدى جربوا الشوتال

ــ الله يلعنك ، شوفوا الفتنة دى

*   *   *   *   *

وتخوف الملك نمر لقاء قبيلة كانوا أهل نشـّاب فأبطأ

سار بنا القبّاع سيراً مَلَسـا

بــين ديرى ود باها خمســا

ســار بنا القباع سيرا نكــرا

بــين دباهــا ود بيرى عشــرا

وكان الحاج عبد الرحمن ود الفكى أحمد أب جدرى وأخــو الخليفة محمد أب صرة على الساقة وكان فارسا :

ــ يا أرباب   (قالها يخاطب الملك نمر)

ــ دحين بيمشينا دا بنبّيت شندى

لكأن ود الفكى قد اتهمه بالجبن والفرار . وتذامر القوم وسحقوا

تلك القبيلة حتى صاروا إلى بلد الحبش وجاء أمان محوبك • وما كان الحاج عبد الرحمن الكليب ليكون معهم وليبلى بلاءه العظيم فى معركة الكويب •

ـ انتو ولاد بيرق

وكان بيرق صاحب اللواء فى هذه المعركة • والحاج عبد الرحمن الكليب قائدها وبطلها ، وشهدها الفكى جلال الدين بيمناه سيف وبيسراه سبحة ، «يُسَبِّحُ لله ما فى السموات وما فى الأرض الملِكِ القدُّوسِ العزيزِ الحكيم » نعم الترس والحرز الحريز• وشهدها الفكى قمر الدين أبو الشيخ ، من أبناء الفكى حمد وبها قتل واستشهد أربعة رقية كما تقدم • وأعيا الأتراك أن يعبروا الاتبراوى فانحازوا إلى الغرب • وأتبعهم الفقرا فعبروا • نسوا نصيحة الصديق وسر النار • وقتل أبونا محمد ود أحمد ودالميدوب فى « تاقب » حيث التقوا • وأكلت « الجلة » مأكلها

ـ سدوا الشرمة ياصبيان

وتساقط بنو عرمان •

وقال ود البقوق الكبير للفكى جلال الدين « نقرنا يا ود نقرنا سمحة الجلسة فى دامرنا »

وكانت المعركة الثالثة بقوز الحلق ولعل هذه كانت بعد حرق ود الباشا وأمر الدفتردار • ومات الخليفة محمد أب صرة رحمة الله عليه بعد هذه المعركة •

---

(١) الجلة : بضم الجيم هى قذيفة المدفع •

وابلغ الشيخ المجذوب وهو بالمدينة مقتل أبيه وأهله فأسى عليهم ودعا على الأتراك

* * * * *

وكان الشيخ حسيب ود الصديق ود الأمين ود الفكى حمد ود الميدوب يدرس الفقه والعربية ويلبس العمامة الخضراء وأخذ المهدى عنه النحو

ـ انتو أشراف ؟ ـ « هكذا سأله الناس لما راوا احتفاء المهدى به وبصحبه »

ـ أشراف .. أشراف .. الشرف شرف العلم

ـ هاى ، المهدى ماعندها (١) شيخ

وسأله أهل الدامر عن المهدى

ـ بحر لا يدرك غـوره

وعن الخليفـة

ـ الموت بين شفتيـه

وكان الخليفة قد اهتم واغتم لما أصر القوم عليه أن يعاهدهم بالأيمان الغلاظ على المصحف فى البنية فوق رأس المهدى فاحتاج الى الفقهاء

ـ هاى احفر ليعلمك لاهنا وادفنا (٢)

والناس بالناس من بدو وحاضرة بعض لبعض وان لم يشعروا خدم وأفتـوا لـه

ـ يا سيدى خليفة المهدى احلف وانو الحبر والورق ، قـول وحاة الكتـاب دا

---

(١) و (٢) هذه لهجة البقارة يقولون عنده بفتح الدال وسكون الهاء وادفنه بفتح النون وسكون الهاء فتبدو وكانها مؤنثة وليست كذلك .

ـ عشرة فى تربة ولا ريال فى طلبة

وأمر الامين بن أحمد بن الأمين بن الفكى حمد عبيده أن يضربوا النحاس « مهدية مهدية » . واجتمع إليه عبد الله ودسعد وعلى ود سعد وسائر الجعليين

ـ سمعنا وعصينا

واخترط سيفه ليقتحم «التَقَينَقرَ» فأصابه الرصاص وغفل عنه لوريمار فأسقطه من شجرته وأبنَه له هولت . وأبوه وجده بنيا المسجد الذى وصفه بركهاردت وكان يأوى إلى برد ظله من حر القيلولة أيام ألم بالدامر .

ـ بحمد الله أكبر ذو الجلال

نغمة قريبة شيئا ما من نغمة : « أراني ما ذكرت لك الفراقا » والحاء فيها نفس من الهاء . وله نبرة أعجمية بكسرة لام الروى ومابعدها من إطلاق «الجلالى» وله لحية . وأنشدوا معه لكثرة ما اعتادوا الانشاد

دق دق دق دق دق ددق دق

كان ضابط صف من فرقة هندية مسلمة جيء بها مع جيش الهند لتقاتل من أجل قضية الحلفاء وتنتزع كرن من الطليان وترد هيلا سلاسى على الحبشة

وكانت الفرقة معسكرة بدرو ، وربما زاروا الجزيرة

ـ حرم ياجماعة « رفيق » تتغدوا معاى . يابت الخروف الأبرق . وكان الهنود المسلمون يقولون فى النداء «رفيق» مكان ياهذا وياصاح . وكان عبد الرحمن الامين رحمه الله يذبح لزمرهم كلما رآها ويذبح لكل زمرة يراها فى جزيرته .

وكان جماعة من الوجهاء قد اكلوا دمعة الكمونية وشربوا الشاى ونهضوا شاكرين وقد شبعوا . فأخبرهم أن الخروف كله مازال على الطاجن يشوى والكمونية إنما هى البطن وأشياء من التوافه . واعتذروا بالشبع

ــ حرّم تنزلو تعوموا

وكانت ملابسهم أوجه من أن يعوموا ؛ فمضوا حتى غابوا عن نظره وأتعبهم السير ثم عادوا فأكلوا الخروف .

ولمصطفى بن الفكى حمد عقب نساء . وللمكى عقب . وغفل لوريمار عن أبناء منصور ومنهم كان الشهيد حاج حمد ود أحمد ودمنصور الذى خلف الأمين بن أحمد فى أمارة الدامر وقتل رميا بالرصاص أول فتوح الحكم الثنائى لولائه المهدية وقالت الناس: « البلد بلدنا وحاج حمد ولدنا » رحمهما الله رحمة واسعة .

وأبناء الفكى أحمد أب جدرى كثير . منهم الأزرق أبو الأزارقة بالقضارف ، ومنهم محمد أب صرة وحفدته بالدامر كالخليفة السهيلى وبكسلا . ومات أخوه الأحمر « بكساب » ولعلما دعاه إلى « كساب » سابق عهد جده الميدوب بسنار .

وللقرشى والمدنى عقب بنات وليس لعلى عقب

وللتهامى والصادق والأزرق عقب صالح

وحمد المأمون صاحب المكتبة التى رآها بركهاردت من أبناء الأمين

وأرسلوا رجلا صيتا بليل يمر بدورهم ويصيح

ــ خلتموا أحمد أب جدرى

وكان أخوه عبد الله النقر فيما ذكروا أسن منه .

وقيل إنهم قدموا أحمد أب جدرى لسعة صدره وأنه « سيمسك الناس » وقيل كان عيدالله النقر إذا غضب على شىء أثر فيه فى الحال ومن ذلك قبل إن خشية عتبة الباب أصابت جانب رأسه فنظر إليها مغضبا فاحترق جانبها الذى لامسه. فذلك عليها إلى الآن ظاهر فيما يذكرون .

وحمى له إذ تجوز عمه وخاله أحمد ــ خاله من مشاهى بنت حمد ود على إذ كان أخاها من أمها فاطمة بنت حجر ، وعمه من الفكى حمد إذ هو أخوه من أبيه المجذوب .

ومع أحمد شقيقه عبد الماجد الضريرى

وحفظ على الفكى الحسين ود عبد الماجد ود أحمد حفيد عبدالماجد الضريرى « أب تابوتاً حريرى » خلق كثيرون وقارب التسعين أو أربى عليها وكان لما كان بالدامر الغربى قرأ عليه أبوه ثم صار إلى خلوة (ود الفكى على) حيث تلقى التجويد من (ود راوى) من فقراء الصعيد . وأوقدوا النار وبلغ ذلك الفكى حمد فأرسل قوما فألقوا عليها ترابا فارتفعت فأبلغوه ذلك فقال إن ناره لن تنطفىء

خالى الذى غصب الملوك نفوسهم وإليه كان حباءُ جَفْنَةَ يُنْقَل

وإنما قيل للفكى حمد « أبو الست عشر » تبركا

وابناؤه كما ترى سبعة عشر من الذكور وتسعة عشر إن عددنا رقية وحليمة .

ويجوز أن يكون سبب قولهم «أبوالست عشر» انهم أهملوا البنتين وأهملوا محمدا راجل السفينة لصغره

ويقال حينئذ فلم لم يهملوا المقتول وقد كان صغيرا ؟
وهذا يرجح ماقدمنا من أمر التبرك
وسبب التبرك أن الست عشرة فى الأعداد دليل الخصب ، إذ كان النيل يجعلونه شيخا ذا لحية وبطن وحوله ستة عشر طفلا يكنون بها عن ستة عشر ذراعا إذا زاد فيضان النيل عليها أفسد وإن نقص لم يك ريا . ولم يلقب الفكى حمد بالنيل ولكن كأنه لقب بقولهم أبو الست عشر ولكن العركيين بالجزيرة قد لقبوا أحد صالحيهم (حمد النيل)
وحمد اختصار محمد ومحمد معدن البركة عند المسلمين والنيل معدن البركة عند النوبة والعنج والفراعنة الاقدمين

من أى عهدٍ فى القرى تتدفق   وبأى كفٍ فى المدائن تغدق

ـ لالوبة يا اللالوبـه
يا ال منك باب التوبـه
بتى المنور كيسها
بتى الخضر جليسها
بتى الميدوب عريسها

أم لعلها « المحجوب » فقد سمعها بكسلا

* * * * *

ودعاه إلى مطعم وكان قلقا ينتظر تلفونا من اسكتلندا وقال له إنى خاطب أو على طريق خطوبة انتظر تلفونا من فتاتى هناك ، لابد أنها تجربة لكم مخاطبة البنات السافرات المتحررات لأول مرة . من أجل الحسنات (for goodness sake) لاتخجلوا

(١) يقلبون الضاد دالا مكسورة .

أن تتحدثوا إليهن ولكن من أجل الحسنات تجنبوا العلاقات العاطفية.
متعبة جدا . أما تراني أنتظر تلفونا من اسكتلندا
قصيرة جدا صاحبة البنطلون طويلة الشعر قصيرة العنق مستديرة الوجه صغيرته منهدلة الشفة السفلى دقيقتها ذكية النظرات لها نوينات ، متشيطنة غضيرة وثيرة البنطلون جدا . لا عيب . قه قه قه قه.سأمسح صدرك - تعرف،أنا جربته .الفكس دا انفع حاجه بكسر الفاء وأصلها بثلاث نقط VICK دهان للزكام وذكروا ان الزكام يقطع عرق الجذام .

- وأحلى من النكبا وأزكى من الكبا

لقد كان المغاربة يجيئون إلى هذا المسجد من الدهر القديم .وقد افتن بعض الناس فى «المحاية» فصارت تكتب بالعسل على الصينى.
... آمين آمين ... تم العدد ألف يس . وختموا الختمة وقال الشيخ الطيب ود عبد الله ود الطيب ولد ود أحمد اللهم تقرأ كتابك ونجوده ونكون فى هذا البؤس

- لا ياشيخ الطيب لا ياشيخ الطيب . قول استغفر الله
والتفت الشيخ الطيب إلى زميله البلخى بضم الباء وفتح اللام وقال له

- أنت بائس متلى يا بلخى،ماأحسن لك تبقى فى جانبى وتعاونى عليه أى ليدعوا الله لماذا لا يغدق علينا الخير كما قد أغدق على الجهلاء

أترانى دُونَ الألى بلغوا الأمـ ـل من شَوقةٍ ومن كتّاب
نَعَمٌ ألبستهمو نِعَمُ الـ ـظلال الغصونِ منها الرطاب
إذ تلك الغصون تصبح عندى ظالماتٍ فهل لها منها من متاب

* * * * *

وتجادلوا أشد جدال • عظيمة الانفعال

واول ما قاد المودة بيننا بوادى عقيق يابثين سباب
وقالت لنا قولا فجئنا بمثله لكل كلام يابُثَيْنَ جواب

* * * * *

وما كان ينظر من نافذة القطار إلا لشعور عميق بالوحدة والوحشة ••••• مسكين عباس محمود العقاد •• قال بصوت خشن لقد جلدت كتابك بالجلاد الأفرنجى هذا هو•••ولم يكتف بنسخة واحدة

وتلك الوجنة الخمرية السكران رائيها
أفى الجنة يا رضوان تفاح يحاكيها
وتلك القامة الهيفاء زانتها زواياها
إذا ما جار ردفاها أقام الجور نهداها

وجدتها وجدتها

وهل لفتاة زوايا ، هذه لفظة خشنة ، من الفكر مباشرة يريد العقاد ليشغلنا بها عن أنه نظر وارتعدت فرائص وجدانه البشرى الذى تضغط عليه كبرياء الفكر ؛ الفكر الذى يحسب الفن شيئا أكبر من البشرية ••• على من جار ردفاها أفى الجنة يارضوان تفاح يحاكيها • موعدنا الجنة ياتفاح نحن الزاهدون بكبرياء الزهد على هذه الأرض الغبراء

ومسمعة يحار السمع فيها ولم تصممه لا يصمم صداها
مرت أوتارها فشفت وشاقت

ولو يستطيع حاسدها فداها

فما خلت الخدودَ كسبن شوقا لقلبى مثلمـا كسبت يداهـا
ولم أفهم معانيهـا ولـكن ورت كبدى فلهم أجهل شجاها

لماذا تردد ابن رشيق فى تقديم أبى تمام على ابن الرومى فى باب الغوص على المعانى . أرأيت كما ههنا خشونة جد فى إعمال حد الفكر . بعض الخشونة كأسنان المنشار ولها صوت ... مسكين العقاد .
وبعضها كحد السيف القاطع الذى عنه المنتأى غير واسـع

أعاذلتى ما أخشن الليل مركبا وأخشن منه فى الملمات راكبه

خرجت عائشة بنت طلحة وابو هريرة بالمسجد ، سبحان الله : كأنما خرجت من الجنة

وكان أحد الفقرا درويشا فكلما أخبروه أن فلانة زوجوها قـال البنت الصفتها وصفتها فقالوا نعم

ـ الله ! دى البت ال كنا خاتين ايدنا عليها

قالوا ورمت الثريا الجمرات بخاتم وعاتبها رجل صالح فأنشـدت لابن أبى ربيعـة

من اللاى لم يحججن يبغين حسبة ولكن لِيَقتلن البَرِىءَ المُغفلا

فدعا لها ألا يعذبها الله . وكان ينظر إلى الفتاة ذات العينين الرماديتين وكانت محتشمة غاية فى الأدب غاضة طرف ِ ألـوانِ الملابس وزوايا العقـاد

ثم اذا هى مدبرة تعدو كأن القميص الكاسى أقمشة تمثال لتبيين الحركة . ومر به ذو لحية فحياه وكان قليلا ما يحيى . وإذا حييتم بتحية . يتعاقبون عليكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ... «بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق

كل شيء وهو بكل شيء عليم • » فرد التحية وردت تحيته ابتسامة التى ثابت واقفة ابتسامة شاكرة له أنه لم يرم نيوبيد بسهم ••وما أعذب عينيها الرماديتين

ولم أفهم معانيها ولكن
مسألة أسهلها صعب
لا الناس تدريها ولا الكتب
حسبك منها لو شـفت حسب
إشـــارة دق لهـــا القلب
بثنيتـى هـذا هـــو الحب
فهمتــه ـ كلا ـ ولا عتب

شر من سهم نيوبيد سهم كيوبيد

والعقاد رحمه الله شاعر•وفى شعره خشونة منشؤها من أسباب عدة أولها التجديد • نظر فى أصناف الشعر الانجليزى فراعتــه وسيء من غرور شوقى فجعل يتحداه بنوع من تقليده لأن شوقيا كان مجددا وكان شوقى يجدد ليضيف إلى العربية من فنون الفرنسية كما آل إسماعيل أرادوا أن يضيفوا إلى بهاء الدولة الإسلامية طابعا أوروبيا: دار الأبيرا والتوسع فى المال والاعمال واكتشاف منابع النيل بأعداء العرب والإسلام والنيل••تجار العاج بأعالى النيل والتبشير بجوبا وصموئيل بيكر وأمين باشا وغـوردون وجيسى ••• وأطاع فى الزبير دعايات لندن وباريس والعنصرية والصليبية جميعا وتغنـى شوقى بخوفو وخفرع بأوزان «وتوالت بشرى الهواتف أن قد»•• وهيهات أن يقاس نفسه بنفس البارودى•وقلده العقادوصحبه

يأخذ من الانجليز كما أخذ عن الفرنسيس. وجد العقاد فى النظر إلى الشعراء الميتافيز يقيين أيما جد وإلى غير قليل من سوناتات شكسبير

Shall I wasting in despair
Die because a woman is fair

وقال العقــاد :

أيذوى الصبا منا لأن منعمــا   من الناس بسام الثغير غريـر

الله أكبر . قال أخو مخزوم :

وأعجبها من عيشها ظل غُرْفَةٍ   وريّان ملتفُ الحدائق أخضر
ووال كفاهــا كل شىءٍ يهمّها   فليست لشىءٍ آخر الليل تسهر

وقال العقــاد

كأننى تاجر بالشط مرتقِبٌ   مَوجَ الخِضَم وفلكى فيه غرقان

انطونيو .. أنا انطونيو وانطونيو أنـا ..

مالى ، دوقيانى .... تاجر البندقيــة

So long as men can read and eyes can see
So long live this and this gives life to thee

بقيــة لك أتلوهــا وأنشدها   هذى القصائد لى فيهن سلوان

قال جرير :

ستهدم حــائطى قرمــاء منى   قوافٍ ما أريــد بها عتابــا
دخلن قصور يثرب معلمــات   ولم يتركن من صــنعاء بابــا

وقال حبيب .

خذها ابنة الفكر المهذب فى الدجى   والليل أسود رقعة الجلباب
بكرا تورث فى الحياة وتغتدى   فى السلم وهى كثيرة الأسلوب
ويزيدهــا مــرّ الليــالى جدة   وتقادم الأحقاب حسن شباب

كالخمر المعتقة الدكناء

يعطى بها البشرى الكريم ويحتبى بردائها فى المحفــل المشهود
كالطعنة النجلاء من يد ثائـــر بأخيه أو كالضربة الأخدود
كالدر والمــرجان ألّف نظمــه بالشذر فى عنق الكعاب الرود

ورفعت يداً عبلة ذات « غويشات » من الذهب الساطع من نافذة القطار المزدحم فى نهار الصيف الحار ذى الوهج والغبار

Shall I compare you to a summer's day

أحبك حب الشمس فهى منيرة وانت مضىء بالجمال منير

والشاهد حب الشمس إذ لايكون إلا فى البلاد الباردة. أما تشبيه الحسن بالشمس فكثير . وقد عبد الساميون الشمس فى الدهر القديم والعبادة فيها الخوف .

وشكسبير فيه تباهٍ على محبوبه بأنه سيخلد شعرُه جماله. والعربى يفخر بجمال شعره فخر زهو ليس فيه عدوان أو تعــال . وإلى شكسبير وإلى الميتافيزيقيين أمثال جون دون ومن عنهم أخذ أو بهم اقتدى ، نظر العقاد .

ونظر أيضا إلى وصف الطبيعة عند وردزورث وأضرابه فأقحمــه كما أقحم ابن الرومى أكثر البقول فى

أجنت لك الوجد أغصــان وكثبــان

وما عمد العقاد إلى تقليد الشعراء الانجليز إلا ليحقق نظريــته فى وثبة البيت وعطف القصيدة وتعاطفها . الانجليز يعرفون القصيدة والعرب لا يعرفون وحدة القصيدة ولكن وحدة البيت . وهذا وهم كبير . والقصيدة وحدة متماسكة .. وقف امرؤ القيس على أطلال الأحباء فجاء السيل فذهب حتى بما وقف عليه .. ولو فطن العقاد إلى هذا ما كان ليضنى نفسه بمقدمات تطول وتفصيل وتحليل

هاتها واذكر حبيب النفس ياخير ثقاتى
ودع التلميح واجهر باسمه دون تقاة
أترى نحرم حتى ذكره فى الخلوات

يا خير ثقاتى ، خبرنا الثقات عن الثقات قالوا : « جمالك والعلم المبرح والمجد »

غير أنى أمتع النفس بحظ الحدقات

هذا مجهود ما تمتعت به الحدقات إذ نظرت فابتهجت هو يريد ليمتع به نفسه ... كأن النفس لا تكتفى بحظ الحدقات وحده .... وماذا يضيرها إن اكتفت به وتمتعت . وهذا ينظر من بعد إلى قول حبيب :

فما خلت الخدود كسبن شوقا   لقلبى مثلما كسبت يداها

ينظر إلى طريقة حبيب فى تشقيق المعانى وتفريعها . إلا أن حبيبا حزن ليس بخشن خشونة منشار ولكن خشونة إصعاد وحز ... ولا يبالى ما يقول حين يقول متى ثبت عنده أنه المعنى .

لقد أطرق الربع المحيلُ لفقدهم   وبينهم إطراقَ ثكلان فاقد
وأبقوا لضيف الحزن منى بعدهم   قرى من جوىً سارٍ وطيفٍ معاود

أى الجوى الذى يسرى إلى والطيف الذى يعاودنى فيؤرقنى هذا هو القرى الذى قرونى إياه فأنا ضيف الحزن بعد إذ رحلوا وهذا هو القرى الذى أبقوه لى .

سقَتْه ذعافاً عادةُ الدهر فيهم   وسمُّ الليالى فوق سم الأوساد

الأساود هى الحيات . أى عادة الدهر بأن يرحل أحبابه ، سقته من الحزن سما ذعافا وسم الليالى كسم الحيات أو أشد

به علّةٌ صماء للبين لم تصخْ   لبُرْءٍ ولم توجِبْ عيادة عائد

أى هو مريض بالفراق مرضا أطرش لا يصيخ إلى البرء فيبرأ ولا أحد يشعر به فيعوده من أجله وهذا أشد حزنا له وألما .

رفى الكلتة الوردية اللون جؤذرٍ من العينِ وردُ اللون ردالمجاسد
رمانى بخلفٍ بعدماعاش حِقبَةً له رَستَمَانٌ فى قيودِ المواعد
غدتْ مُغتتدى الغضبى وأوصت خيالها

بهجران نضو العيسِ نضو الخرائد
وقالت نِكاحُ الحبِ يُفسِدُ شكلَهُ
وكم نكحوا حبّا وليس بفاسد
سآوى بهذا القلبِ من لوعةِ الهوى
إلى ثعبٍ من نطفةِ اليأس بارد

هذا الذى يأوى إلى نطفة باردة من اليأس ليس الحب عنده إلا مادة من مواد الفن يتأملها ويقتبس منها ويصنع صناعته فى ضوئها ويحترق بها آخر الأمر ولمّا يجاوز الأربعين . « له رستَمَانٌ فى قيود المواعد » ههنا تأملة نفسانية دقيقة . وعدولا يريد أن يفى ويستحى ألا يفى ويُمَنّى نفسه المخرج بالمطال ثم أقدم فأخلف .
« وقالت نكاح الحبِ يفسد شكله »

صفه لى عينى ولا تعدو به وصف الأضاة

قال أى المرآة ، أى وصفك له كما تصف المرآة الوجه ليس فيه شعور . وما مرآة تصف وجها إلا وصفته بعينى من يراه وشعوره. الفاتنة لاترى وجهها فى المرآة كما يراه المفتون بها . ولقد تكون هى بوجهها أشد فتنة .... ولقد ارتفع ثوبها عن زند مكتنز وكأن مفصل المرفق خيزران . وتحازيز حيث يلتقى الذراع والزند « كمُطَرّق ، » الذهب أو « سعَمَة » الذهب ، هذه الحلى التى

يلبسها العروس عند « الجرتق » (الجرتق زينة تقليدية للعروسين وللمختون والمختونة فيه الكحل والحريرة والذريره والذهب والودع وعظم الحوت) كأنها سبائك ذهب مضفور فوق البشرة الناعمة الضاربة إلى الخضرة الحرة

كأن مكان العقد من فوق نحرها صفا من حَزِينٍ سهّلته الموارد
عضمرّة فيها بقاء وشدّة ووالٍ لها بادى النصيحة جاهد

أما الآن فعصر الشباب وهى به شديدة الشعور والأسنان مصفوفة صلاب بوارق بالنقاء يكشفهن سواد اللثات وهى تفتر بجناحى حمامة. .... توت توت ... تحرك القطار فى وهج النهار و «يا أب بشرال ورافتوار » ... كأن بينه وبين العدوة القصوى زجاجة .. قاتل الله أبا تمام

تريا نهاراً مشمساً قد شابه نبت الربى فكأنما هو مقمر

لقد أدق النظر ... كان يفكر فى معانى القصيدة كما وجدها، كما أورثها إياه أمرؤ القيس وزهير وجرير وغيلان ، وكما يرى الفن هو وكما يحس وكما يريد أن يقول . نظر إلى العوادة فراقته وجنتاها ولكن يديها بما تصنعان هما اللتان ملكتا عليه لبه وأرتاه الأسرار

فما خلت الخدود كسبن شوقا لقلبى مثلما كسبت يداها

لا بل أرتاه طلب الأسرار وهو الشوق الذى يبغيه المتصوفة

شغلتنى بك حتى حسبت أنك أنى
أهـ ... له ... ال ... يا الله
ويا الله .... ـه يا الله
قيــــوم

يا حسن ٠٠٠٠٠٠٠ قيــوم
خيول النور ٠ يجن طابور ٠ عليها حبور
سموه الملك ٠ فى كم وكتَبّك ٠ كم حلّ شبك ٠ حسن النادر ٠

ياليلى ٠٠٠٠ محمــد أبويــه
ربطْ ام غــور فوق المويــه
صيتــك راح للبرنو كرويــه
تورنــا فرود بيسوق ارقويه

يا ليلى نــادى لى الخاتــم
تور كسلا ياب در١٤ عاتــم
الأسرار حاويها وكــاتــم
وخيل الغيب فوق راسها بيلاطم

ــ الله اكبر الله اكبر
ــ دور شيخك أحمد بن النور

وتوالت بشرى الهواتِفِ أنْ قدْ ولِدَ المُصطَفَى وتمّ الهَنَاء
صل يارب ثم سلّم على مــن هو للخلق رحمــة وشــفاء

سيدنا فاستمسك
٠٠٠ ــ بالذى أوحى إليك ٠٠٠ هوى هناك
٠٠٠ أولم نعمركم
٠٠٠٠ ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكمُ النذيرُ فذوقوا فمــا للظالمين من نصــير
٠٠٠ ود الحراســات
٠٠٠٠٠ وقالوا ربنا بَعِّدْ بين أسفارنا٠٠٠آأنزل عليه الذكر٠٠

حتى زرتم المقابر ...... خير لكم عند بارئكم ... باجاب ألف
بى جيب يا ..... بوجاب واو وألف ...

وقف المستر قريفث يعرض عليهم الفانوس السحرى .....
واندفقت القربة ... وعطش المسافر الذى كان راكبا حمارا

أترى ألبق منه باصطياد المهجات
أترى أملح من خطرته فى الخطرات

كل هذا تكلف ما كان أغنى العقاد عنه لولا فتنته بأن ينظم القصيدة
كما تنظم وحدة القصيدة الانجليزية ، كما يكتب موضوع الإنشاء
وكان حسبه لو اكتفى بقوله :

ذهبى الشعر ساجى الطرف حلو اللفتات
وحيى لايحييك بغير البسمات

وهذا بيت القصيد ... ثم يحتمل قوله

جاهل بالحب أشكو . ولا يدرى شكاتى

وما بعد هذا تطويل وصياغة وصوت الفكر الخشن فيه جهير والشعر
صوت الضمير ... رأى النابغة بلوية حسناء فى موسم الحج
وجاءت تفتنه فزجرها .. اعزبى عن الناقة ايتها المرأة .. ستحطمك .
ـ من يشترى أدما . « أى جلودا بصوت رخيم » . ما أفتنها
ولكن لا يحل لنا فى هذا المكان لهو او فسوق . ـ اعزبى ـ
وضربت به الناقة التيه .

بانت سعاد وأمسى حبلها انجذما　　واحتلت الشرع والأجزاع من إضما
إحدى بلىّ وماهام الفؤاد بها　　إلا السفاه وإلا ذكرة حلما

حياك ربى فإنا لا يحل لنا لهو النساء وإن الدين قد عـــزما
قلت لها وهى تسعى تحت لبتها لاتحطمنك إن البيع قــد زرمــا
أى اتتهى ... فوتى .. هلا سألت بنى ذبيان ما حسبنى .. مسكين العقاد وخشونة الكبرياء فى شعره أيضا .

وخشونة التفهيم .. أفهمته كلا ولا عتب .. يقبل العقاد على الدنيا بكبرياء ويقول لها تعالى أعلمك .

يامن أصون جماله وكـــأنه   خصم على تلك المحاسن يحقد
لاشىء أوجع لامرىء من أن يرى حملا يطيب مع الذئاب ويرغد
أخشى عليك من البعيد وأنت لا تخشى من الدانى الذى لايبعد

ولعل « الذى لايبعد » هنا ضعيفة .

وأحوط حسنك بالتمائم والرقى وتظل تنثر عقــدها وتبدد
وهذا بيت القصيد . الله ! .. البنت ال كنا خاتين ايدنا عليها .

وتبيت ريان الجفون من الكرى   والنار حولك والدخان الأسود
مسكين العقاد ... صبر جميل والله المستعان على ماتصفون . ثم يعلو صوت الكبرياء

لم تتبع نصحى وملت مع الهوى جهلا وغرك أن غصنك أملد
والغصن تسقط إذا يميل ثماره ويزل عنــه الزهر إذ يتــأود
منطق وتدريس ونفس من ابن الرومى .
إن كنت تحميك الطراءة والصبا شر التقصف فالتجرد أنكــد
ههنا نفس ابى تمام .

كلا ورب الكعبة . قال ابن الرومى «وأملح من سربالها المتجرد »
أولى بوجهك أن يضيك حسنه من أن يحفك منه غيم أربد

ـ وهنا أبو تمام فى تَقمّص هجائى .. «كُسِيتْ سبائبُ لؤمه فتَضاءلت» ،

هذى يمينى فى يمينك فاعتصم أولا فارسلها فما لك منجد

يوزيدون ... زيوس .. «والشاعر الفذ بيّن الناس رحمن» تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا

لو كنت نوحاً لم تفدك سفينتى إن ابن نوح كان فيمن ألحدوا

أبو تمام ورب الكعبة ونظم كنظم المتون . « وجداً كوجد فرزدق بنوار » « صبرىٌ عزم من أبى سمّال »

وللطرفات يوم صفين لم يمت خفاتا ولا حزّنا عدىُّ بن حاتم

وقال الفرزدق

وكنت كما قال ابن نوح سأرتقى إلى جبَلٍ من لُجّةِ الماءِ عاصم

وكان الفرذدق يعبث . وكذلك كان يعبث جرير :

اذا كشرت إليه يقول بَلوى بلا حسنٍ كشرتِ ولا جميل

ولا يخفى عليك شرابُ حتدٍ ولا ورهاءُ غائبة الحليل

ترى التيمىَّ يزحف كالقرنبى إلى تيمنيّةٍ كمصا المليل

ـ لا يامحمد أفندى ياخوى ، بنات النسا ما فيهن شينه كل فوله ليها كيال .

وماكان أبو تمام يتعالى على أحد بتدريس ولكن يدعوك الى المشاركة .... كان يعبث بالنسائب كأنه واقف يتفرج على الحبائب وقد صرن رموزا وطلاسم وهو يحلها ويضيف إليها أصنافا جددا

أزرين بالمرد الغطارف بدنا غيدا ألفنهم غطارف غيدا

أحلى الرجال من النساء مواقعا من كان أشبهم بهن خدودا

أمواقف الفتيان تطوى لم تزر وطنا ولم تندب لهن صعيـدا
أذكرتنا الملك المضلل فى الهوى والأعشيين وجرولا ولبيـدا

تأمل..ذوات الخدودوالقدود أذكرنأباتمامأمرأ القيس والأعشيين والحطيئة ولبيد بن ربيعة العامرى

نحن بنـو أم البنين الأربعـة
ونحن خير عامـر بن صعصعـة
المطعمـون الجفنة المدعدعـة
والضاربون الهام تحت الخيضعة
مهلا أبيت اللعن لا تأكل معـه

وبعد أن أكل الفطيرة نظر فإذا الفتى بحذائه الغليظ فوق حيث كان يدحو الرقاقة وشك اللمح بالبصر . والرغيف يصنعونه كذلك فى الطوابـين .

يسعى بها ذو زجاجاتٍ له نطف مقلص" أسفل السربال معتمِل
على ظهره قربة ماءٍ ويداه تعتملان أمامه

على كاهل من ذلولٍ مرحـل
نزول اليمانى ذى العياب المحمل

والعجوة الجيدة فى دكان حسين اليمانى . كل ذلك فى كسلا ... أفندى بضباتين ..

ــ ندورى شقاوة .. ندورى تأب

ــ مررو ... مررو .. ندووري تأب

ــ وانا مين بوديني...وانا مين بعد-يني..ليكسلا غرب القاش.

وجلسوا إلى شاى العصر فى الشقة عنده شرائح الخبز والسردين والبنضورة والخيار والخس – يقرأ فى كتاب المجموعة الوافية . لتيوس : خس . سلرى : بقدونس.سبنتش ، سبانخ لم يرَ الخس ولا البقدونس . خس ، الخس بضم الخاء .. المكمامة فى الخس .... المكمامة غرافة يغرف بها العجين من الخمارة (إناء الطين الذى يكون فيه العجين الخمير) والخُسُّ بيت النار من القصب والحطب . والخص بالصاد فى الفصيحة .

كانت تقول له أمه أريد أن احج أريد أن أحج . وتدعو الله أن يدفنها بين الشفيع والبقيع فلما حج بها ومدن اشتاقت الى بناتها ولما أحست الصداع جزعت ألاّ تراهن فقال ابنها وكان مزاحا : « يأمّ هادا الشفيع وهادا البقيع » وكانت جدته قالت له : « عقرباً تسفك » وأصرت على أن ترى الغلام الذى غرق قبل أن يدفن وكانت ابنة عمها حجت مرارا . وكانت فصيحة ذات شكيمه : وحاة الشيخ « وحاة النبى ال مسكت شبكه » ... ورأت حصانا يجر عربة كارو ... « دحين الصافنات ديل بيهينوهن عندكم الهانة دى » . الهانة أى الإهانة ... والتفتت : « دحين ياولدى بتعرف الصافنات ؟ » .. قال حسان لصفية والله مالى بسلبه حاجة يابنة عبد المطلب .

– الأهالى يدوسون هذا التمر بأقدامهم يابُنيّه

وضحكت ووضعت العجوة على الزبد بعد أن أكلت ورقة خس . ودخل الفتى الشيوعى المطعم فى زغرب وبيده سندوتشة (شطيرة فى الشعر فقط) فشرب ماء ووضع من الملاحة الشعبية على السندوتشة ملحا وشطة وفى أجسام الأوربيين الشرقيين صخامة

إذا وجدوا الطعام وروما من أجمل المدن وأسوان كثيرة فيها صناعات السعف ـ دق دق دق دق ددق ددق دق

ـ البطيخة دى بكم ـ هادى بتعريفة ودى بقرش

ـ ودى بقرش ليشنو ـ دى حمرا... حمرا وحلوة

وكانت بقارية طويلة تبيع البطيخ بالظعين (تصغير ظعن وتنطق الظاء كالضاد) ولم تكن البطيخة حمراء ولكن لونها كالرمل وفيها خييط أسمر .. هذه حمراء إذ بطيخ كردفان كله أبيض ... حتى بطيخ كلفورنيا إن زرع هناك صار أبيض

كانت ذات الخد المورد تمشى كالولد بخطا شديدة وذراعين كمشية الجنود وكان زميلها الشاب يمشى مشى القطاة إلى الغدير ويكاد يكتحل ويتكلم بغنة ويلبس القمصان المزركشة الحرير والسراويلات القصيرة جدا ماثلة أوراكهن صقيلات العراقيب . وهمَّ ناظر المدرسة أن يكتب إلى الزميل فلان وإلى الزميلة فلانة «تنبيه هام لو عكستما طريقة مشيكما» كان ذلك أشد ملاءمة لمذاهب التربية وكان ذلك أرسخ أقعس وكانت شطبة كالمهرة ثيابها الخشنة" السوابغ" عليها عبث" ، وكأن عجزيها وهى تهرول هرولة شاب جليد ، بطيختان .

أف الجنة يارضوان تفاح مجانيها ... ومن أسباب خشونته تقليده ابن الرومى وكان لو قلد أبا تمام أشبه به .. ابن الرومى كما قال طه حسين أراد أن يغالب كتاب الرسائل ؛ طريقته فى التفصيل والتعليل كطريقتهم... والعقاد يريد أن يستعلى على العواطف بمذهب فنى ؛ هذا النهج نهج ابى تمام فى جوهره ... أذكرتنا الملك المضلل فى الهوى ، فجئت وقد نضت لنوم ثيابها ، ويلى عليك وويلى منك يارجل ، قالوا لها هذا سيتزوج ابنتك

جار لقوم أطالوا هون منزله وغادروه مقيما بين أرماس

« مرية حلت بفيد وجاورت أهل الحجاز » .. أذكرنا الشعر والأهواء والجنون . أبوتمام قد قدر أن يضبط جماح عاطفته ويخضعه للفن ويجعل الفن ناطقا بجماح عاطفته ، لم لاتقول مايفهم ولم لا تفهم ما يقال

ها إن هـذا موقف الجازع أقوى وسؤر الزمن الفاجع

وكان يقرأ هبة الأيام وإلى جانبه أطلس آكسفورد ويلذعه البعوض نصف النهار إذ هذا البيت له باب وطاقات فى أعلاه وقطيع ، جزء خلفه مقتطع منه مظلم له رف توضع عليه الأمتعة . وكان ذلك فى « زمان الهيصة » .. أى أواخر المهدية ..

وجلسوا فى«الدانقة»أى البيت الواسع ووضعوا بنادقهم فى الوسط، ركزوهن بعضهن على بعض فى شكل هرمى ، وأرادوا ليأكلوا ويستريحوا .... «هاى دحين البيت دا ما فيها زول» واخذ حربته ودخل القطيع وجعل يتحسس بسنان الحربة وجعل الرجل الذى اختبأ يتحرك سابقا مسقط الحربةالتى تتحسس ودنامن باب القطيع وفيه ضوء واندفع كالطلقة (أى الرصاصة) فهو عند شاطىء النهر، فَهَوَىَ فى النهر . وكان الشاطىء عاليا والبحر (النيل) عميقا بعد خطوة . وغطس ثم رفع رأسه ليتنفس .... ــ تف .. صوت طلقة فوق رأسه وغطس ثم رفع رأسه بعد حين ... ــ تف ... صار ذلك لهم تسلية وهو الآن كقمرية أو كدجاجة وادى أو كأرنب وهم يريدون أن يصيبوه وسيصيبونه حتما وكان لايعرف السباحة واقتحم اللج .

شـليل وين راح   أكلـه التمســاح
شليـــل وينــو   أكلـــــه الـدودو

وكانـوا يلعبـــون بنـــين وبنـات عليهــن الودع والرحاطة والتنانير ، معصرات وكواعب وكانوا قوما عرَباً ولم يكن الفتيان يقفون ينظرون إلى الفتيات بعيونٍ مريباتٍ ولا الفتيات يرمين الجمرات بخاتم من نافذة القطار .

كان لم يكن بين الحجون إلى الصفا   أنيس ولم يسمر بمكة سامر
بلى نحن كنا أهلها فأصابنا   صروف الليالي والجدود العواثر

لم يكن ابن الرومي بمحتجب عن عاطفة ولا بمريد أن يستعلي عليها، يجزع ويضطرب ويتحامق وينافس ويحسد البحتري ويروم تفصيل معاني أبي تمام بلين بشار

لك مكر أدب في القوم أخفى   من دبيب السقام في الأعضاء
أو دبيب الملالِ في مستهاميــ   ـنَ إلى غايةٍ من البغضاء

فأني لم أحمدها على جمعه كما حمدتها على حفظه ... إني حفظته لك من فتنة البناء ومن فتنة الثناء ومن فتنة الرياء ومن أيدي الوكلاء فإنهم الداء العلياء ، كأنما عصرها من خدي أجداد جدي ، كلا ليس ابن الرومي بخشن ، ولكن لين مكشوف العاطفة ، مكشوف القلق، والحرص، حبيب إلى النفس ، وهجا البحتري لأن البحتري كان معجبا بنفسه يصعق عن يمين وعن شمال ويقول ألا قولوا أحسنت، لو امكن تفضيل ابن الرومي على البحتري لفضلناه، ولكن ليس إلى ذلك سبيل، ولا تحسبن أن البحتري عابث مغسول المعاني لا يحتفل للشعر كما ينبغي فقد شهد له المبرد بالتجويد والتبريز ، وذلك من أبي العباس عزيز ، وإنما أكره البحتري على أمثال « لي حبيبٌ قد لجَّ في الهجر

جدا» إكراها . قال المتوكل « عهاعها عها ــ أريد أن أقيء» وكان مترفا يريد الأسلوب الحديث فنصح الفتح بن خاقان البحترى أن ينظم اللين من الكلام .

خلافة جعفرٍ يمنٌ وعــدل   وحسن سياسةٍ يَسَعُ الأناما

وكان للغبن إذا نظم الجيد قال قولوا أحسنت وبصق على الذوق السقيم والجهل المقيم . مسكين البحترى كما مسكين ابن الرومى كما مسكين الشعراء

خبير بنولِهبٍ فلاتك مُلغياً   مقالَةَ لِهبِىٍّ إذا الطير مَرَّتِ

وصاح الشيخ ذو الصوت الخشن « إصبعى هذا فيه من العاطفة ما لو قسم على الناس لكفاهم أجمعين » . . « أنا صانع الصنم أحطم الاصنام » طفلا يبكى من خوف الذئاب

هل ثَم من جديد   يا ســاعى البريــد
لو لم يكن خطابى   فى ذلــك الوطــاب
لم تطو كل بــاب   يا ساعــى البريــد

يريد أن يضحك ، ولكن لا يقدر أن يضحك . ضحكه خشن لأن فيه نشيج بكاء : ... ... بكاء طفل ... ساعى البريد الخشن يلتاع إليه هذا الطفل الساذج البرىء الفطيم عن ثدى أم ذهب إلى عــزاءٍ بعيد

مــاذا التنســيق   والجمع والتفريق
والقفز والتعويق   يا ساعى البريــد

يا ســمج

... أحبك يا سمج لو تقدر ان تجلب إلىّ بسمة عزاء

كسوتك الصفراء والخطوة العرجاء
يمشى بها الرجاء يامحنة الجليـد
لا أحسب الساعات فى حاضـر وآت
إلا على الميقـات ميقاتـك الوئيد
فى شرفتى أبتكر غيرك لا أنتظـر
وإن سعى لى القمر يا سـاعى البريد

وناوله الساعى رسائله أو وضعها حيث عوّده أن يَضعها

ياطائفا بالدور كالقدر المقدور

هذا استطراد محاولة للانصراف عـن الموضـوع أو الارتفـاع فوقه . روح أبى تمام بلفظ ابن الرومى وأدائه . شىء خشن . ما كان أغنى العقاد عنه .

كن أبداً مريدى بالخبـر السـعيد
وبابتسام العيد يا ساعى البريـد

فرحة طفل أو محاولة فرحة طفل . ما أشد ما كانت عزلة العقـاد ووحشته حتى طلب العشير من ساعى البريد الخشن البذلة والمشية والبطء والإعراض ، ومن أخبار البريد الرسـائل ، الفكـر ... الذى هو نطفة اليأس الباردة ... مسكين العقاد ... لم يفطن إلى تفسه فى شعره الأول ولكن جعلت شاعريته تتغلـب على حجـب الكبرياء والفكر الكثيفة التى كدسها على نفسه ، حين تقدمت به السن واحتاج إلى دفء الوداد القريب

كلما قلت لى الربيع جميل قلت حقا وزاد عندى جمالا
عجبا لى، بل العجيبة عندى صور الكون كم يسعن كمالا

خلتنى قد وعيتهن عيانا وتبعت من وَعَوْها خيالا
شاعرا عاشقا وقارىءكتب قرأ الكتب دارساً فأطالا
فإذا نظرة بلحظك تبدى صورا ماطرقن عندى بالا

هنا الاعتراف الذى يكفر الخطايا ولم تكن به وبالشعر حاجة إلى أن يقول

بعداد الأنوار فى أعين الحب نعد الأكوان والأجيالا

ولم نعدُّ الاكوان والأجيال إذا وجدنا الحب؟أليس يكفيناذلك... الشاعر القارىء الدارس لايقدر على مدى لحظة من جميل، و « عاشقاً » كما ترى مقحمة حيث جاء بها ونحو ذلك يغتفر. والآن إذ ذكرنا سيرة المحبوب ، فلنرفع أكف الاحتياج إلى مالك خزائن العيوب..أفى الجنة يارضوان ثواب العبقريات..ما أحب الكروان .. هل سمعت الكروان ... أى عناء .. مسكين العقاد

جبل هوى لو خر فىالبحر اغتدى من وقعه متتابع الازباد.

رحمه الله الرحمة الواسعة وأثابه الثواب الجزل . لقد طالما نظر إلى أبى تمام من زجاج الرومى الكثيف الأصفر ولقد طالما نظر الشعراء إلى ابى تمام فأعطاهم كما كان يعطى المعارف والقرابات والندماء ويتخرق فى العطاء

وفى الكلة الوردية اللون جؤذر من العينورد اللون وردالمجاسد.
(حمرالحلىوالمطاياوالجلابيب) (ربمعانٍوصيقل ألبابوأذهان)

« نصف دائرة الأكوان »

ــ نادى أب صوبان ، دفعالله .. دفق الوَبان دفعالله .. قوم ياجربان دفعالله ، عنده القطران دفع الله

ــ الليلة لى السراى (أى السارين جمع سار على فعّال) ..
والقوم بريدن براى

ــ الليلة العديل والزين والليلة العديلة ويا عديلة الله .

ــ الليلة العديل والزين والليلة العديلة تقدّمه وتبراه

كانت أصواتهن منكسرة حزينة وهى أغنية فرح للعرس وللختان. ولكن كذلك كن يغنين ولا سيما كبارهن . بل كانت هذه أغنية العمات والخالات . وأعجبته الأغنية

ــ سوّنّ العجين والزيت

كان ذلك بكسلا والأطفال يجرون إلى بيوت الجيران ليسرقوا منها ويخفوا ما سرقوه ويحضر المسروق منه فيفتدى ما سرق بعطية يعطيها « ود الطهور » (المختون) . شىء شبيه بعادات سبرطة...
وضحكن من قوله العجين والزيت وهو يريد العديل والزين

ــ يابا .. دا بقول يوم السوق ، يوم السوق ...

وضحك أبوه وانما كان يقول : التوم التوم (الثوم) يصيح عليه ليبيعه وكن حزينات الأصوات حين يغنين أغنية الفرح الخفيفة التى للمسيرة

ــ ياعديلة يابيضا .. ياملايكه سيرى معا .. الليلة شوياً بقدرة الله ... أى شأوا

ــ نحن النيل ال عمّ الوادى .. ترانا جينا اسحفوا لنا غادى
أم العروس جينا ليكى .. جبنا الحرير لينظم الشبيكى (الظاء تنطق ضاداً)
أم العروس هاكى هاكى .. جبنا الضهب والحجول مكاكى
نحن النيل ال عم الوادى

الليلة لى السراى •• والقوم بريدن* يراى
تعال نتغنن ساعة لمن انتهى •• الله الله الله •• عليه توكلنا
له الفخر والتبجيل والعز والبها •• الله الله الله •• عليه توكلنا
فذاك إمام الكاملين أو لى النهى •• الله الله الله •• عليه توكلنا
الليلة لى السراى والقوم بريدن براى •• الله الله الله عليه توكلنا
دوس البيت يانمر •• نحن ال مابنقدر •• عروسكن شينه •• وليها
عوينه ياصبَّر الصقُّر •• نحن البنور ••• أى يوى يويوى يوى
يوى أى يو يا يا يا يا عديلة يا بيضا ••• بأصوات جهيرة سريعة •
متحدية من لورى كبير مسرع •• أين الأصوات الحزينة
عفت الديار محلها فمقامها بمنى تأبد غولها فرجامها
ـ أولادنا قتلوهم اليوم
كان هذا زوج ربة الدار الهند غربى يتحدث عن تيم الملونين بمنشستر كيف غلب أحد الأتيام البيض •• واولئك يلعبون الكريكيت، فى الميدان برجال بيض • فى ثياب بيض • عند مضارب بيض •
حمر الحلى والمطايا والجلابيب
قهوة كردوما فى زحام الشارع مع رفيق درب بهذه البلاد ،ليس الآن وحده ، شاى وخس وشرائح خبز ولحم وفاكهة معلبة وفتاتان
••• أما منهما فشبيهة هلالا وأخرى منهما تشبه البدرا
وهم فى فندق السكة الحديد الضخم ذى الأنوار جهم كمالم يعرفوا الجراند هوتيل على شاطىء النيل إلا قليلا •• وسقط إناء فانكسر وبرق البصر « وإذا الصمت اللعين •• يتمطى ويرين •• وإذا الأبواب والأنوار والسقف عيون »

ـ دقدق دقدق دقدق •• أفندى لر ••• أفندى لر ••• أفندى لر ••• أفندى لر

ألست ترى كيف يمضى القطار فينأى مزار ويدنو مزار
وموج من الأرض فيه النبات وأزهاره فضة أو نضار
يَمُرُّ أمامك مرَّ الهواجس فى القلب منهن ماء ونار

دقدق دقدق دقدق

أصحابه الآن فى لندن • وبعد أيام يركبون القطار إلى استراتفورد ليشاهدو مسرح شكسبير •• سوادشديدعلىمبانىالطوبالأحمر ••• وغام زجاج النافذة •• نحن الآن فى المحطة ••• نهاية المطاف محطة ماذا •••

دق دق

دق دق

ياحسن سوّاق الونِش ماتسوق الجدية وتَمِش
ياحسن ياجبل الحديد دايره شوفة السكة الحديد
السكون فى بُرتىِ سودان والمرتب نص وقه ضان

الشتيلة ال فوق جدولا •• جيت امد ايدى اتناولا •• الحراريس قالوا لى لا •• انت فقرى وما بتقدرا

ـ الليلة لى السراى والقوم بريدن براى ـ •• اللهْ اللهْ اللهْ •• عليه توكلنا

ـ أحمد المصطفى•••يارب صل على•••دقدقدقدقدقدق••• توت•••توت••توت•• انا النحلة وانت الدبوس ••• والثعلب ، فات فات • وفى ديله ، سبع لفات • والجبة ، وقعت فى البير • وصاحبها ، واحد خنزير ••

ـ تشكليله ... هوى يا ليله .. عمتيه ... هوى ياليله
والمبلس فى الكباية .. والبنات يجروا ورايا

أيهـا الطائر أهـلا بمحياك وسهـلا
فقت كل الطير شكلا زانه ذاك الهـديل
أمكُنّ استودعتنى حبها إذ ودّعتنى
وكتـابا حمّلتنى لفظه يشفى العليل
اننى عنـكن غـائب والى الأوطان آئب
ارتجى حسن العواقب من لدن رب جليل

دقدق دقدق دق دق ...

كأنما هو من حلٍّ ومُرتَحَلٍ موكّلٌ بفضاء الله يذرعـه
إذا الزماع أراه فى الرحيل غِنىً ولو إلى الهند أضحى وهو يزمعه

واتكأت المضيفة المجنسة على الهولندى أو البريطانى هى تخدمه وقعدت على حرف من كرسيه وناداها الأصيل الأخضر الأدكن الشعر من بلدها باحتقار وغيظ ثائر مزجهما معا أيما مزج ... وتصامتت وصاح وشعر بلذع الإهانة الراكبون.لم يعد الهولنديون والبريطانيون أهل سيادة ههنا . وهى المجنسه ينبغى أن تعتمد على خئولتها التى كانت محكومة فقد صارت حاكمة الآن وأعطتها تصيب المنبوذين فى نظام الطبقات الموروث . وما اتكأت على على الهولندى إلا لتغيظه

اولئك آبائى فجئنى بمثلهم إذا جمعتنا يا جرير المجامع

دق دق دق دق دق دق دق دق
افندى لر
افندى لر

ابريل أو مايو ... لعله مايو ... كان ينظر من نافذة الزجاج والقطار مسرع .

لبيك اللهم لبيك

وروضُ الرخام الأحمر الروض عنده

جلستُ وحبي للرسول أكيد

* * * * *

عرّج على جوس واذكر عندها الوطنا   إن الجبال بجوس هجن لى حزنا

* * * * *

عرّج على جوسٍ واذكر عندها الوطنا

إن الجبال بجوسٍ هجنَ لى حزنا

أذكرتنى أركويتا وهى نائيةٌ

والنيل يا ليت أن النيل منك دنا

وإن بالدامر الغربى منزلة

كانت لنا وغنينا عندها زمنا

لدى السيالة إذ جمعُ الصلاة بها

صبيحةَ العيد والطبلُ الذى رطنا

تبثتها قد هوتْ من بعد ما سمقت

حينا من الدهر لم تذمم لها قننا

وما أسفتُ على شىء كما أسفت

تفوسنا يوم أمسى حيُّنا ظعنا

تخرّموا والمنايا ذات تفرقةٍ

بين الخليط الذى قد طالما قطنا

وقــد ذكـرتُ بذاك القفــرِ والــدة
ريعـت غــداةَ نعـى الناعى لهـا حسنا
وقـد تحـدّر مـن عينـى وقـد قـرأتُ
كتـاب منعـاه دمـع قطـرُهُ سَخُنـا
إذ فارقتـه قريبـاً إذ يقـول لهـا
لمّا دعتنـهُ ذَريـنـى ألعبَن هنـا
إذ كـان يلعـبُ حُـراً إذ تربّـص لِكْ
عصـفور إذ خلفـه صِـلٌ الردى كمنـا
لمـا أتتْ من ضريـح الشـيخ فاجأهـا
برفع كفيْنـه ناع لم يكـنْ فَطِنـا
وجـدة أبلـت البلـوى شكيمتهـا
وكـان مرُّ الليـالى بالأسـى قمنـا
قالـت ألا فاكشـفوا عنـه لنبْصِرَه
والثُكْـل مرٌ وحمـل المثـقلاتِ عنا
لمّا رأت جسـمه غضاً كمـا عهـدت
والروح فـارق مـن زُرْيابـه البدنـا
قالـت أمـاتَ غريقـاً أم أتيـح لـه
حَتْفٌ سوى ذاك أم رَيبُ المنـون أنـى
وقـد تجـلّدتـا للـرزءِ وأبتَغَتـا
أجرَ المهيمـن والإيمـانُ لـن يَهِـنا
وكانتـا برجـاءٍ تبْـصـران مَعـا
وربٌ غيرهمـا لليـأس قـد ركنـا
وزالتـا بعـد ما بالصبْر صابرتـا
الضراء والعيش بعد الرقـةِ الخشنـا

سقاهما الغيث الا يفنى وخصهما
رضا المليك برزقٍ عنده حَسَنا (١)

وقد تجلدت حتى خلتنى حَجَراً
وقد صبرنا وكان الحرُ ممتحنا

وقد تجلدت حتى خلتنى حجرا
حتى إذا جنَّ ليلى أرسلَ السُننا

ورام فى الفصل يوماً عطف أفئدة
عليه شَيْخٌ جهير شدَّما لسنا

فقال هذا يتيمٌ والداه مَعاً
ماتا إلا إنه حقاً لقد غَبِنا

إنى عليك حزينٌ يا بُنَىَّ وإن
تَحزَنْ فرزؤك من أمثاله حَزِنا

ولم يزل هكذا يرثى له فمرى
دموعه بعد ما للصبر قد سَكَنا

يا حبذا غضب الشيخ البشير وقد
كنّا نلوذ به من دهرنا رُكُنا

وكنت إذ زرته ممتا يجاملنى
مثل الكبير الذى مقداره وُزِنا

والشيخ من قَبْلُ عبد الله أودَعنا
حُبّا له ولديه حُبُّنا مكننا

يا رحمة الله صُبّى فوق أضرحةٍ
فيها السكينة قد كانت لنا جُنَنا

---

(١) بضم السين او فتحها ، فالاول فعل ماض والثانى نعت مقطوع فالنصب وجه من وجوهه ان شاء الله .

وقد عجبت من الدنيا التى أخذت
منا الكثير وما أعطت به ثمنا

وإنما هذه الدنيا كغانية
تزيّنت ولها طرف الغرور رنا

والصالحون عباد الله إذ رغبوا
عنها إلى الله كانوا معشرا فطنا

والكبر أكثره زيف وقد شهدت
عيناك شأن أبيك الطيّب الطّبِنا

وكنت تعهده من بعده ماهجعوا
نشوانَ بالآىِ يتلو ثمننه الثمنا

وصيتا حافظا ثبتا روايته
للشاطبية عن أشياخه لقِنا

إذ تخرّق بالأسباع جودها
ولا تكاد تحسّ المدّ والغننا

وشعره كان عذبا حين ينشده
وكان بالشعر طبّا بارعا لحِنا (١)

وكم شدا « يلذرا ذات القصور » و
« أيّام لنا سلفت » فيها الأساسَ بنى (٢)

النحوَ والصرفَ والشعر الرصينَ
وأصنافُ الكتاب الذى لم يدرِه القرّنا

---

(١) لحنا بكسر الحاء عارفا فصيحا .

(٢) سل يلذرا ذات القصور لشوقى ولو لا يزيد وأيام لنا سلفت لمسلم ابن الوليد : والأساس مفعول به مقدم .

وكان مرا عزيز النفس مبتعدا
عن الدنايا وللفحشاء ما أذنا

مواصلا لأولى الأرحام مدخرا
عند العشيرة للأيام مؤتمنا

حلو الفكاهة بساما محببة
إلى النفوس سجايا طبعه مرنا

وقد بكوه بأصوات مذكرة
والثاكلات الألى ما إن ينين ونى

وشائلين بأيديهم فئوسهمو
مع العصى وكم أشجى وكم حزنا (١)

وقد تذكرت أياما مضين لنا
إذ نحن فى كسلا والعيش قد لدنا

وآل الأزرق إذ كنتا نجاورهم
طابت عشيرتنا فيهم وعشرتنا

وكم مدحنا « صلاة الله دائمة »
كنا قليلا وقدما فى القليل غنا (٢)

وكنت تشدو « نسيم البيت » مجتهدا
و « ردفا » لاترى مثل المديح غنا (٣)

---

(١) حزن متعد تقل حزننى واحزننى .

(٢) و (٣) هذه مدائح للشيخ المجذوب رضى الله عنه : صلاة الله دائمة على المختار فى الرسل ، و« نسيم البيت لاقانا » و (ردف السلام للنبى الامام).

وقـــد تذكّـرت فـى تَكَنرُوف موقفنـا
إذ يمتـح البـدو ذاك المـوردَ الأجِنـا (١)

إذ الحمـارُ الـذى قـد كنـت مُرتَدِفـاً
عليـه أخضَرُ شـهم يجـذب الرسـنا

وقـــد تذكـرت لمـــا آب من سَفَرٍ
يُهْـدِى إلينـا وما خاطـوا لـه الكفنـا

وقـد نظرتُ إليـــه وهـــو محتضـر
وقـــد شهـدت وقـد صَفّوا له اللّبِنا (٢)

وقـــد وقفـت عليـه حين وسـّده
القوم التُراب وصَوْت عنـده لَحَنـا

واسـترحمـوا ريثمـا تحشـو أكفُهمـو
وهِيل هَيْل على القبـر الـذى دُفِنـا

وهـادرين بحـدْرٍ مـن تلاوتهـم
وآخـرين سِراع أحضـروا الجُبَنا (٣)

وكـان فى القـوم منصـورٌ وكـان لـه
خـلاً وكـان وَسيمـاً وجهـه رَضِنا (٤)

ذا لحيـةٍ خالطـت شيبـاً مبائبهـا
زانت ؛ ولم يسـتدر عثنونهـا ، الذَقَنـا

---

(١) تكروف بئر بناحية كسلا . (٢) اللبن بكسر الباء الطوب الاخضر. (٣) الجبن جمع جبنة بالتحريك وهى اناء البن فى السودان يصنع من الفخار وصنعه اليابانيون من الصينى،وقد يصنع من الصفيح،وكل ذلك دون الاناء الفخار القديم. والحدر قراءة القرآن السريعة (٤) هو ابن محمد ود احمد ود منصور رحمه الله

وقد أقومُ قبيل الفجر أصدَحُ
بالقرآنِ أتلو ويعلو صَوتِيَ الدُّجَنا

وأسأل الله شؤبوبَ السلام على
قبرٍ تَفضَّمَنّه يا طيب ما ضَمِنا

وللقواديس أمواهٌ تدَفّقها
والسّنْدَقيق شَجَاه يفعم الأُذْنا (١)

وقد صحبتُ أناساً عند ساقيةٍ
يقَدّرون لقطع النّامةِ الغُصنا (٢)

وقد رأيتُ بصيراً ذا تَكَلُّفَةٍ
يُنحي القَدوم بحِذقٍ حيثما سَفَنا (٣)

وقد تعلمت من لفظ اصطلاحهم
ذَرْواً كقولهمُ «التّوريق» و « التَّكّنا » (٤)

وكان جدّي جلال الدين بدّله
مرُّ الحوادث من بعد الشّطاط حنى (٥)

---

(١) القواديس جرار السالية والسندقيق بوتن فتليل « وزن عروضى لا صرفى » هو تروس حلقتى السالية وهو من خشب السنط واحده سندقيقة والكلمة مروية أو فرعونية او نوبية والله اعلم (٢) النامه هى الجزء المقوف من غصن السنط الذى يصلح منه عمل الحلقات . (٣) القدوم مشددة الدال فى العامية وسفن (باب ضرب) قشر . (٤) التوريق عمود السالية والتكن حيث يجلس من يسوق بقرها. (٥) الشطاط اعتدال القامة ، قال عوف بن محلم يذكر سنه وهى ثمانون :

وبدلتنى بالشطاط الحنى وكنت كالصعدة تحت السنان

وكان ذا رقّة لينَ العريكة مو
دودا وديعا وسهلا قطّ ماحزُنا (1)

سقى ثراه حَيَّا غفران خالقه
وفي الجنان لدى رضوانه عدنا

وحدثتك عن الأجداد إذ ركبوا
وأنشدتك أناةٌ مثلما زكنا

والنائحات على شيخ أخي طرب
ركبن يفدينه الأفراس والحصنا

بناتُ بيرقَ والأيام فاجعة
وآل بيرق ماتوا موحدا وثنى

يا رحمة الله سَحِّي فوق أضرحة
عند اليباب تكرنا بعدها الزمنا

وحدثوك عن الشيخ الذى عهدوا
مثل الهزبر وقالوا قطُّ ما جَبُنا

وعند تجبير كَسْرِ الساق ما طرفت
عيناه شيئاً ولا عن شأنه شَنِنا

وفي القضارف لما راهنوه أتى
محمد بذراع الليث مرتهنا

وكانت ابنته صفراء خالصة
رأيتها إذ أقامت أشهراً معنا

(1) حزنا بضم الزاى صار حزنا غليظ والحزن بسكون الزاى ضد السهل .

ثـم افترقنـا وريـب الدهـر مـدٌ لها
من بعدنـا مـن قرانـات الردى قرنـا

مـن النسـاء حصـانٌ ذات مقربـة
جـاد السـحاب ثراهـا غيـدقا غَدِنـا

وقـال شـيخ بنـى صيناً بتنَى نَفَرٍ
وكـان أبلـج يرعـى الفـرض والسننا

ردّ الجمـوع لـدى بحـارةٍ عمـرٌ
بباعـه هكـذا كالطـود إذ رزنـا

أولاك قومِـىَ ماقـوم كمثلهـمُ
والمـرء فى الدهـر يلقى الغـمّ والغبنـا

لا يبرحـون علـى أمرٍ تـوارثـه
آباؤهـم إذ يهيـج الهـوج والهجنـا

تواضعـا وإبـاءٌ وادخـار أُسىً
والجـدُّ فى الحـرب لمـا أنْ بهـا أُذِنَا (1)

هـم قاتلـوا بسـيوف الله مصلتـةً
وبالحـديـد فمـا كلّـوا وإن وهنـا

منهـم أبو القاسـم المـرء الذى قتلـوا
فـلا استكـان ولا عـن دينـه فتنـا

---

(1) أسى بضم الهمزة جمع أسوة . أذنا مبنى للمجهول : علم .

لقد تذكرتهم ليلا ومنزلتي
كنشو فاكرم بالقاب لهم وكني

إذ بعدهم أرد الجد الظنون فما
أروى به وأخوض الضحضح الأسنا (١)

إذ يصبن الكأس عنى من أريد له
كوب الظود وكتوبى عنه ما صبنا

وقد تذكرتهم كيما ألوذ بهم
ورب غيرى إلى أوكاره وكنا

بهم توسلت لما ضامنى زمنى
حتى اغتربت وكنت القارح الأرنا (٢)

وقد رأيت وقد هومت مكة فى
نومى فأولت ذاك النصر والأمنا

وكنت أسأل فيها عن منازلنا
بالأخشبين وأجياد وخيف منى (٣)

صلى الإله على الهادى النبى كما
هدى وجازاه عنا السر والعلنا

ولا يزال الحيا يهمى على جدث
فيه السراج الذى نجلو به الفتنا

(١) الجد البئر الظنون التى يظن بها ماء ويكون قليلا او غير موجود بفتح الظاء.
(٢) الارن بفتح الهمزة وكسر الراء : النشيط والارن بالتحريك النشاط .
(٣) الاخشبان : جبلا مكة .

حِيالَهُ عُصَبُ الإيمانِ واقفةً
يستمطرون على روضاتِهِ المُعُنا (١)

وقد تذكرت حين الشيخة اتخذت
ناراً من البرد عَذْرُ النار ما أمِنا

تبادر الوقت تخشى أن تفوتَه
وقد تكون كمهر الحرب إذ صفنا

حجت وزارت وكانت ذات مأثرة
وفكرها سِيَرَ الأخيارِ قد خزنا

وأمها جاوزت عشرين عن مائة
أو فوق ذلك شيئاً أو إليه دنا

كلتاهما فى ضريح الشيخ تبصرها
عند الفِناءِ وهذى الدار دار فَنا

يابوّأ الله فى الفردوس روحهما
دار المُقامة لاضَيْماً ولا ضَمَنا (٢)

يا صاحبىَّ أعينانى على خطط
بعد البلاءِ ألاقيها لا مُتحَنا

إن الصبابة قد عاصيت صولتها
وإن قدرت على غير اجتناب جنى (٣)

---

(١) جمع معين . (٢) ضمن : مرض بالتحريك. (٣) ان نافية مثل ما ولك ان تقول وما قدرت وهى كذلك فى البيت التالى .

وإن وجـــدت معاصـــاتى لهـــا كســـبت
إلا الغـرامَ وقـد كـان الغـــرام ضـنى

أم لا تـــزال تـــرى للحســـن أوديـــةً
مســـحورةً ودُنىً مـــن دونهـن دُنـــى

وعـــين قلبـــك ما تنظـر بهـــا وجـدت
مع الأسى من رُؤى الكـــون الجميـل مثنى

إن المليحـــة لمـــادارهـــا شـطنـت
هـــذا الفؤاد عـــلى آثارهـــا شـــطنا

حتـــى أرى أركويتـــا وهـــى نائيـــة
والنيـل والعـين مـن توتيـــل والقننـــا

والقـــاش أحمـــر جياشـــا غواربـــه
وزرت عنـــد الضريـــح السـيد الحسنا

وعصـــبةٍ عنـد غـرب القـاش كادحـــة
جمهورهـــا بعبـور القاش قـــد مرنـــا

تراهمـــو يحملون النـــاس ضاحيـــة
على الأســـرة ينـــزو بعضـــهم أرَنـــا

كمـا المحـــامِلُ حـولَ البيتِ خفَّ بهـا
مطوّفـون عليهـا الطفـــل واليَفَنـــا (١)

و « فَنَدكٍ » عـــاورت ثنتـــان ردَّتـــه
والعيش من قبلُ فى « مَرْحَاكَة » طَحِنا (٢)

---

(١) اليفن الشيخ الكبير الهرم. (٢) الفندك هاون من الخشب والرحاكة حجر يطحن عليه والعرب تقول رحله يرحك والهاء قد تصير حاء .

حتى ترى نَفَيَاناً عنه طار وقد
عجبت عند دقيق منه قد عُجِنا

وعجوة لحسين شيخ ذى يَمَنٍ
والسدر ذو النبق الغض الذى سَمُنا

« والإندرابُ » الذى فى طعمه لَزَجٌ
والدوم أحمر فيه الماء مُختَزَنا (١)

وبالفدادين أصنافٌ مزركشة
من الدنانين قد نلهو بها عَنَنا

تدنى لها النار كيما أن تطير وقد
تطنا لها الشوك بالنَفَصَيْن قد قرنا

كما تطير بجو ذات أجنحة
من الحديد حَشْوُها النار والدُّخَنا

لعلها صرخَتْ من مس جاحمها
وفى لظى يصرخ الصَّخر الذى فُتِنا (٢)

وقد سبتكَ فتاة كالنبيذ ثقيلٌ
ردفها مشتهاة لدنةٌ غصَنَا

وجاملتك بالحاظ لها ضحكت
وزودتك سرور القلب والحزنا

وإن نوناتها لمّا أبهت لها
حكَيْنَ بَرْقَ خريفٍ رشّح المُزْنا

---

(١) الاندراب من شجر كسلا له ثمر حلو مزلزج ولك أن تقول والقلق السدوم والقلق بضم القاف وتشديد اللام الدوم ، قبل استوائه .

(٢) فتنا : علب قال تعالى « يوم هم على النار يفتنون ».

مـــن المضيفـــات إذ ودّعـــت صاحبنـــا
وكـــان قـــد جـــاء يستجلى حقيقتنـــا (١)

وقـــد نراقـــب أسرار النفـــوس وقـــد
تغضى حيـــاءً وبقيـــا تلـــك سيرتنا

وقـــد نصيب ســـويداءَ الفـــؤاد إذا
نبغـــى مـــن الغضـــب الداء الذى دفِنـــا

وقـــد بلونـــا ضروب العيـــش واختلفـــت
بنا الخطـــوب ورزنـــا الحـــزم والوَهَنـــا

وقـــد بكينـــا فجـــفّ الدمـــع حـــين به
طـــال البُكـــا فـــوزنّـــا الشـــعر فاتزنـــا

مـــن البســـيط الذى أجـــزاؤه اتســـقت
وضربـــه وعروض منـــه قـــد خَبِنـــا

نشـــدوه فى خـــلوة الوجـــدان تحســـبه
وهـــو الشـــهيد على ايمانـــنا دَدَنـــا (٢)

ونورنـــا الشمشـــمانى الـــذى غمـــرت
بالفيض أحرقتـــه الأريـــاف والمدنـــا

يا حـــبذا النيـــل والروضـــات زاكيـــة
النمشـــورى وطيبـــة المـــأوى وذات جنـــى

---

(١) اى مضيفات الطائرات وتلك الوصيفات وما البتنا اجود .
(٢) ددن : لهـــو .

وحبــــذا جــارة لــوادى منــازلهـــــا
عنــد الخميلة قـــد كانــت لنــا ســـكنا
عنـــد الخميــلة بــين الدوحتـــين لــدى
حيث الفــؤاد الــذى لم تفـدهِ رهنــا
وحبـــذا مجتــــلى هنــــد بعــــارفـــة
من العوارف يعشـــى ضوءها المِحَنــا
وحبــذا القـــوم إذ آواك ودهمـــــو
حتــى نســيت لدى صهبائــه الإحَنــا
وحبـــذا ذات إســـفارٍ بــــذى خَمَـرٍ
كأنهـــا رشأ البيــت الذى شـَـــدَنــا
وحبـــــذا منــزِلا جَــونسٍ ورابيـــة
قد هيجت لك هــذا الشــجو والشجنــا (١)
وحبــذا هـــذه الدنيـــا تفارقهـــا
وقــد أعرَتنــا بهـــا أرواحنــا المِهَنــا
نريـــد حرّيّـــة كبــرى وكيف بهـــا
والفكــــر فى القيــد والأغــلال قــد سجنــا
إن التى ابتســـمت لى فابتســـمت لهـــا
قـــد غــورت جرحهـــا فى القلب فاندفنا
ثــم ابتســمت لهــا من بعــد فابتســمت
وكـــان ذلــك لهـــوا والغـــرام عنـــى
حــتى أرى جزلــة العيـــنين مشرفـــة
الخــدين فى شــفتيهـــا الشــهــد واللبنا

---

(١) جوس بنيجيريا مصطاف .

زيتونة أريحيات شمائلها
بمثلها فتن المستور فافتتنا

من اللواتي إذا ما ظلها وجدت
عين الغريب ذراه ذاقت الوسنا

لما بدا الساحل الغربي واتسبت
نخيله فنكرنا الخوص والأهنا (١)

مغدودفا كدر الأنهار ذا غمق
يهدي المحيط إليه الصخب الدكنا (٢)

بكى على النيل صب لا يزال يرى
خلف الظلال حنان الشاطئين حنا

من كل حسانة طالت تجاورها
صنوانة ذات قطف من يديك دنا (٣)

وهيأ الجمر يذكيه لقهوته
خشف أعيفر لاح الليت والأذنا (٤)

كالبشر سمرة نهديها إذا لمست
منك البنانة كفيها فذاك هنا

طورا يسوف دخان البن راقبه
وتارة يسمع الإيقاع إن سجنا

(١) الاهنا جمع اهان بكسر الهمزة وهو عرجون النخل ونخيل الزيت والنارجيل كلاها لين السعف كانه عشب وليس بذى خوص كالنخل ولا عراجين كعراجينه.
(٢) مغدودفا : مظلما من الخضرة . غمق ندى وماء كثر . الصخب الدكنا : الامواج
(٣) الصنوانة هي النخلة التي تكون معها اخرى .
(٤) خشف ظبي اعيفر ترابي اللون فيه سمرة وبياض ، الليت جانب العنق ومنصوبة على شبه المفعولية كانك قلت لاح ليتا .

يا حبذا وجه أعرابية ألِفَت
حديثها النفس ما إن ودُّها أبِنا

إذ الدُّويم « عرَشْنكتولُ » الجمال به
نرنو إلى الروح لا نبغى به البدنا

وقد تذكرت أياما بلندرة
وقد تكون لنا أيامها وطنا

إذ الشباب طريفٌ والهوى أُنُفٌ
والحبُّ مستطرفٌ والعيش ما غَضُنا

وأتحفتك بحلواها مُدَلّهة
كأنها ذات طوقٍ تبتغى فننا

يأيها البارق السارى بتَزجيَةٍ
يعلو الستار ويعلو صَوْبه قَطَنا (1)

إن امرأ القيس لما عينه نظرت
إليك بالشام أبدى شَيْمَه اليمنا (2)

لما بدا الآل من حوران مرتفعا
وأنس البال فقد الآل فاحتزنا (3)

---

(1) هنا اشارة الى بيت امرىء القيس على قطن بالشيم ايمن صوبه وقطن والستار موضعان ذكرهما .

(2) لانه فى الرائية وصف الشقر وهو بالشام وراى يثرب وهو بالرمات وعلمجراء

(3) اشارة الى قوله ولما بدا حوران والآل دونه .

لا أمُّ عمرو قريب من مضاربنا
ولا الربابُ إليها طَرْفنا شَقَنَا (١)

ولا أظن خطوب الدهر تتركنا
حتى نجوز إليها السبعة العُنُنا (٢)

وقد رأيت أصيلاً فوق طائرة
تعلو السحاب وجُنحَ الليل إذ دَجَنا

كلون سُنَّة إثيوبية نَزَحت
ما إن تؤمُّ بها الخرطوم أو عدنا

والسحب مثل ركام الثلج أكثِبَة
تُضدن أو أشبهت أثباجُه القُطُنا

أم هل تذكرت جيرانا بذى سَلَمٍ
يُدمِنُون على صحرائه الدِّمَنا

ونشوةً من كئوس الراح شاكرةً
على محيا الأديب الكهل آذ أمِنا

وحضرةً قد جلوناها منيلتنا
وَصْلَ السعادة بالسِّر الذى زَكَنا

حتى نرى ذَهَباً نَضْراً ولؤلؤةً
لا تستباح وشَعْراً بالشذى دَهِنا

وأفرحتك التى حيَّتْ بحاسرةٍ
مشبوبةٍ فى فؤادِ الصب ذات سنا

---

(١) شفن نظر وذكر ام عمرو فى الرائية والرباب فى ميميته .
(٢) العنن بضمتين جمع عنان والعنان والعنان ناحية السماء .

وأرعشت كبد المشتاقِ لوعتها
نبيلةَ الأثرِ ربتا تعشق الحسنا

وإن لمع ضياءٍ من ذؤابتها
لما بثَثْتَ إليه الشكوَ قد أذِنا

والله إنّ سعيدا من رآك بلى
إن السعيد الذى ما ريع أو غبِنا

إن السعيد الذى ناجاك مغتبطا
يجنى جناك وودُّ الغانيات غِنى

صافحتها بيد ترجو مودتها
وصافحت كعناقٍ ضَمٌ واحتضنا

وأفعم القلب حبّيها وخلت لدى
لقائها أن دمع العين قد هتنا

* * * * *

ددق دق ددق دق ددق دق

* * * * *

وروض الرخام الأحمر الروض عنده
جلَسْتُ وحبّى للرسول أكيدُ

تعشقت فيه قبل أن أعرف الهوى
وقد أورثتنى سرٌ ذاك جدودُ

فلا تسألى عنى سلى عن خليقتى
فإنى ألباب الرجال أفيدُ

وادى النيل البعيد

ألا إنّ وادى النيلِ منك بَعِيدُ
فهل أنتَ لما أنْ نأيت سعيد
تذكرته لما صرمت حباله
وهل يَصرمنّ الحبلَ منك عميد
فياليتَ شعرى هل لَميس كعهدها
ولم تتبدّل من لَميس عهود
وما هى إلا غادة قد ألفتها
لدى النيل بين الدوحتين تميد
هنالك أوطانى وبدّلت غيرها
ألا إن أوطان الرجال قيود
وكيف الذّ الرّيف والرّفه والغنى
وهنّ لفقدان العشيرة بيد
ولكنّ دارَ الفكر دارى وإنّها
لنائية إنّ البليد سعيد
سَعَيْت اليها سَعى جدّ وربّنى
أبٌ كان روضاتِ العلوم يرود
وناهض مرّ اليتم فيها وهاضه
وَفاةُ أخيهِ الفذّ فهو فريد
وغالب فيها غَيْظَ كلّ منافس
وحفّت به وهو الصغير حقود
وقال له المرء الذى كان ناظراً
نَجَحت ولكن لا أراك تميد

ومن قبلُ وصَّى أنه غير نافع
وذلك من دون النَّجاح وصيد (١)

ولكنَّ دار الفكر كانت بعيدةً
وما فتِئَت ان النَّفيس بعيد

عرفت اليها لندنا ثمَّ بعدها
دَنَت لى من آفاق مصر رُيُود (٢)

وقد زرت باريساً اليها ووادى الـ
لوار وحيث الجانبانِ جليد

وتونس والحمراءَ أرْض مراكشٍ
وشاهدنى فى كربلاء شهيد

وفى عَدَنٍ دار الأديب ابن غانم
وحَيْث وراءَ البحر عاش هنود

ركبت اليها زورقاً وسباحة
وعطلة صيف والطريق كئود

وسِرْت لها فى العيد بين أحبتى
بَدَامر لو كان الزمان يعود

وخاصمنى فيها ويعلم أنَّنى
أحقُّ بها ذو غيرة وحسود

وخاصمتهم فيها ويا ربَّ خطة
يُضيِّعها ذو الحزم وهْىَ سديد

وهل باعنى للنَّاس علمى غاليا
ألا إنَّ بيعى غاليا لزهيد

---

(١) الوصيد الباب .
(٢) ريود جمع ريد بفتح فسكون وهو ما نتا من الجبل من انف ونحوه .

وهل يَبذُل المرءُ الحصيف عَتاده
لشيء ورَيبُ الحادثات عتيد
وقد زُرتُ بَيتَ الله واخترت خِيرتى
بيثربَ إنى للرسول ودود
وقد طُفت بالبَيتِ العتيق ولامَسَت
يَدِى ركنه حين الزحام شديد
ورَوَّيت نفسى من سُلافة زَمزم
وعجَّت لدى ضيق المقام وفود (١)
ورَوض الرُّخام الاحمرِ الروض عنده
جَلَستُ وحبِّى للرسول أكيد
« تعشقت فيه قبل أن أعرِفَ الهوى »
وقد أورثتنى سِرَّ ذاك جدود
وحاربت بَغضاء الجُفاةِ ولم أزل
على صَدَمات الصادمين أزيد
وكان يَراهُ الآجنبىُّ قريعه
فسمَّاه مَغرورا وذاك جحود
كذلك كَيدُ الأجنبيِّين واقتدت
إماءٌ على آثارِهم وعبيد
وما بَكَت الأيَّامُ فقدى مَودَّةً
ولكنها كَيدَ العدُوّ تكيد
وعند الاله الغَيبُ أجمع ربَّما
بَكَتْ عليها وهى بعد فقيد

---

(١) وهو مقام ابراهيم عليه السلام .

أما علمت أنّ الزمان الذى نأى
بنا علّه يدنو وأن سنسود
ألا إنّ دارَ الفكر وهى منيعة
حماى وحدّى للعداة حديد
وقد لمَعَتْ فى الفجر منها لوامعٌ
وبادت وما الجهد الأصيل يبيد
فلا تسالى عنّى سَلى عن خليقتى
فإنّىَ ألباب الرجال أفيد (١)
ألا بلّغا عنى المليحة أننى
أحِنُّ اليها والمزار بعيد
وقد تَعلَمُ الحبُّ الذى هو فى الحشى
دخيلٌ وفى العينين منه شهيد
وأعجَبهُ منها تطلّعُ جيدها
إليه أدارَ الآخرين تريد
فقلت لها كلاّ ولكنّ جانباً
اذا رامه منكَ النّضالُ عنيد (٢)
وقد ودّعتنى لَيلةَ الدار عَصبَةٌ
كِرامٌ وقومى الطيّبون شهود
وقد أجفلت لمّا أردنا وَداعها
لَميسُ ومنها جَفوةٌ وصدود
وعاشرتها الدّهر الطويل وانها
على طول ما عاشرتها لكنود

---

(١) الباب مفعول به مقدم .
(٢) الكاف للمخاطب التفات .

تمــادت لعمرى في الــدّلالِ وطالمــا
همّمنــا بهــا والكبرياءُ حــدود

وقــد زودتنا ساعــةَ البينِ قبلــةً
فتــاة طريفٌ ودُّها وتليــد

وقد ذكرتنــا عهــد أيّام لنــدن
فتقنــا لها والذكريّاتُ عهــود

وسرّك في زُدياكِ آدم مَنظرُ الجبالِ وفي دوْرا رواقِصُ غيد(١)
تلوّين حتى خلتهــنّ تمــازجت
مع المَــوْج في أكفالهن نهــود

وقفــن معــا في الصفّ خَمساً وأربعا
ومالت عــلى أكتافهن خــدود

تراهنّ مثل الخَيزُران الــذى ارتمت
به في الخطــا والساعدين قــدود

ويَرنون من لهــو الحــديث بأعيُن
كأنّ نــدى أحــداقِهنّ نشيــد

وهيهــات منك النيلُ اذ هو مُزْبد
واذ هــو من برد الشتــاء بــرود

وهيهــات تيّــار بواديه جــارف
وآخــر يَغشى حَجرتيه وئيــد

واذ معنــا الكَمّاك وهو مُهــذَّب
لبيــبٌ وبعض الوافــدين بليــد

وأدرك لمّــا أن رأى ريفَ أرضنــا
أصالتنــا إنّ اللبيب صيــود

(١) دورا بنيجيريا مدينة اصل الهوسا .والزودياك المشار اليه سيارة وآدم سائقها.

ويمدحنا طورا ويمدح قومه
بلا سرف ان الغبىّ يثود

وروّعنا اذ لاح أسود زاحفٌ
له غبرات فى التناضب سود (1)

واذ منزلا أسماء خفض ونعمة
واذ هى تبدى فتنها وتعيد

واذ يدك السمحاء بالبرّ سمحة
لمن يعترى إن الكريم يجود

وإنّك سمٌ للعدوّ فلا تخف
أفاعيهم واصبر وأنت جليد

وقد يعلمُ الاقوام أنّك صنتهم
وأن خانهم من قيل كان يذود

ولو أنّ قوماً أنصفوك حمدتهم
وأنت وإنْ لم ينصفوك حميد

ألا ان دار الفكر وهى سعيدةٌ
لدارى وإنى عندها لسعيد

ألا إنها سعنىٌ وجدٌ وغربة
وتجربةٌ عنها الرجال تحيد

---

(1) هو ثعبان اسود . التناضب جمع تنضبة وهى ضرب من الشجر ذى الشوك.

ألا إنهـا زادِى وآدِى وعـُــدّتــى
وعـــادى وأعـــدائى هنـــاك حصيـــد

كمـا دُمّرت بالرّيـــح عـاد" وغودرت
بطاغيــــةٍ فى الهـــالكين ثمـــود

الا أيهـــا النيـــل السعيـد تَحيّـةً
ذكـــرناك فاعـــلم إنّ ذاك ورود

كمـا وردتـك الزائراتـــك بالحِمى
وماؤُكَ مَيْمُـــونٌ وورِدُكَ عيـــد

ألا إنّ وادى النيـــل منك بعيـــد
وشــــوقك لا يَبْلَى وأنت عميـــد

فمن مبلـــغ عنّى التحيّــة مَعْشراً
ودادى فِيهم ثـــابِت" ويزيـــد (٢)

* * * * *

(٢) اى ذكرناك فاعلم ذكرنا اياك انه كورود منك فان مكسورة الهمزة وان شئت فتحت.
(٢) اشارة الى قول جميل « قالت ثابت ويزيد » .

النيل الطامح

أتذكر حين النيل أحمر طامح
وكم لك عند النيل بيتع مرابح

وما ذم منى أرض تكرور وافد
إليها ولكن طرحتك المطارح (١)

أتذكر إذ دار الغريبة رحبة
واذ فضلها جم واذ أنت قارح

واذ حولك الطلاب والفتية الألى
غنيت بهم غاد إليك ورائح

وكم لك عند النيل من ذى مودة
وآخر ذو قربى لقربك فارح

وكم لك عند النيل من ذى تحية
وذى حاجة يرجو وكم لك مادح

وكم لك فى مصر أديب وعالم
وكم لك فى الخرطوم خل وناصح

وقد هبت الريح الشمال فهيجت
فؤادك إن البين للقلب جارح

وأنكرت هذا الهبو لما رأيته
وشاقك بالنيل الشراع المجالح (٢)

---

(١) ارض تكرور هى ما بين بلاد برنو وسنغال .
(٢) المراد هنا المائل يجلاب الريح وتجلابه وفيه اسراع وتزيد.

وإخلاصُ بيضاءِ الذراعين جَذْبَها
قُوَى الحَبْلِ اذ جنب الشراعين جانح

وتبسم لما أوجَس القلبُ خِيفةً
وتغضى وماء النّيل للشّربِ صالح

وقد بلّ لَطْمُ المَوجِ ثوبى وثوبَها
وراع وعَصْفُ الريح بالبرد لافح

وأرنو إليها وهىَ تجذِب حَبْلَها
ومسقط لَوْح النّصف بالماء ناضح (١)

وان لقاءاتِ القلوبِ خفيّةٌ
مداخلها والتجربات مفاتح

لأم ترنى باينت أسماء كارها
وذلك رُزْءٌ بين أسماء فادح

وقد كتبَتْ تبغى لنا أن نَزْوَرها
لَميسُ وقالت إنها ستبارح

وآثرت تأخيرَ الجوابِ تقيّةً
وعندى لها بَعْدُ الهوى والنصائح

وقد زعموا أنى كَنَيْتُ بِذكرها
وهيهات لا أكنِى ولكن أصارح

وقد وَدعونى لَيْلَةَ الدار عُصْبَةً
وودّعهم مِنّى مُبِين مناصح

ولمّا أتاح الله لى طائر النوى
تَفَاءلت عل الخَيْر لى فيه تائح (٢)

---

(١) هذا يكون فى نصف كل قارب ويتم به توازنه ويسميه النوبيون (السقالة) بتشديد القاف وبالانجليزية (سنتر بورد) .

(٢) تائح : اى يتهيا ويتيحه الله من تاح (اللآلى).

ولازلت جارَ البَيْنِ من أول الصبــا

وحســبى دارا طِيبِنىَ المتنــاوحَ (١)

إذ الجرْفُ ذو غابــاتٍ منبطٍ غــزيــرةٍ

وطَلْحٍ وإذْ ظلُّ السّيــالة فاســح

واذ تجتنــى الصّــمغَ الجنِىّ وترْتقِى

الى القرَظِ الفرْعَ القَصِىَّ الكَوادح(٢)

وقــد زال عنــك الآل والحــال والغنى

وطاحت بجيران الزمــان الطوائــح

وأبصــرت فى حــرِّ الهجــيرة قاربـاً

على الضّفّــة الأخــرى وماثَم نابــح (٣)

طريــح لقى لاحِسّ للنــاس عنــده

وقــد حفّه آل النهــار الضّحاضـح (٤)

وقد خلت الدّنيا وقــد ران صَمْتهــا

وخِيفَتْ لفِقدانِ الأنيس التّماسحَ (٥)

وأذكــر لمّا أن صــحوت فلــم أجــد

سوى بَرْدِ مَسّ المــاء والبحر طامــح

وقــد طاح فيه النُّؤْىُ وارتــاع قلبــه

لأن نام حتّى حولهُ الصبح صــابح (٦)

كأنــك لــم ترفعــه أمس مثابــرا

وللنّيــل مــدٌّ مشرئب مُكــاوح (٧)

---

(١) المتناوح : المتقابل ، شرقيه بإزاء غربيه

(٢) جمع كادحة والقرظ ثمر السنط .

(٣) وما ثم نابح : وما هنــاك احــد .

(٤) وقد حفه السراب كأنه ماء ضحل متصل بماء النيل .

(٥) لفقدان الناس . التماسح : التماسيح .

(٦) النؤى ما يردم ليكون حاجزا للبيت دون الله من مطر او نحوه .

(٧) مكاوح : مقدم ممتليء يهم باجتياز الردم .

وقد عَضَّ بالعالى من الأرض كلّه
بذى حبب إزباده فيه ماصح (١)

وقد ملأ اليمُّ الفجاجَ ولم يكن
ليكبحه دون العزازة كابح (٢)

وقد غرقت فيه الجذوع جميعها
وقد غاب سَنطُ الخور الآسرائحُ (٣)

وأبصرت فى الماء الفناجينَ عوّمًا
وبعضُ أثاث البيت طافٍ وكاسح

وأقبل يزجى رَيّسُ البر مَركبًا
بحيثُ مكانُ الماء أمسِ أباطح (٤)

وقد حزّم البيت القديم فلم يقع
وكم جاح من بيتٍ جديد جوائح

تسرّبنَ تحت الأرض حتى قعرنه
وصاحبُه بالتّوّى ساحٍ وكاتح (٥)

وقيل أساس الطوب فى البيت صانه
فلم يهوِ اذ نزّ الدّميرة ناضح (٦)

وما هو الا لطف ربك إنه
لطيف وعن ضعف الضعيف مسامح

---

(١) بذى حبب : بماء ذى فقاقيع لفيضان النيل . ماصح : ذاهب ـ فقاقيعه تغيب فى مده المتسع .

(٢) العزازة : الخلاء .

(٣) سرائح بدل من سنط لان غاب فيها معنى النفى . او نقول : لا بمعنى غير والاول اجود .

(٥) مركب بضم الميم هكذا ننطقها وفتح الكاف اى السفينة كانها اسم مفعول من اركب لان الريس يجعل الناس يركبونها .

(٥) ساح اى يسحو الارض بالمسحاة اى الطورية وكاتح يكتح التراب .

(٦) الدميرة : الفيضان .

أتصبر أم للبين دمعك سافح
وكم لك من متن له البين شارح
والنفيت هذا العيش مافيه لذة
سوى أن طحا قلب الى الحب طائح
وإن غنى فكر اللبيب مناحة
ينوح بها إن الحياة منائح
على ما مضى إذ ليس فى العيش لذة
سوى مامضى والباقيات الصوالح
لدى الله هن الذخر والذخر كله
إلى الموت إن الموت للناس ناصح

* * * * *

وفلجاء تغتر ذات بشر وصحة
لها كفل من ثقله الطرف رازح
نظرت إليها مرة وكأنها
من الأدم ريم سرب واديه سارح
وراقصتها والليل نشوان والخطا
تداني وأطراف الثياب تماسح
ألا ليت شعرى عن أوربا وثلجها
وقد لبست منه المروج الأفائح
وقد خامر الكون الربيع ورفرفت به
فى كآبات النفوس المفارح
وفوق الشجيرات الشطوء التى بدت
وذاب من الثلج الذرى والجوانح (١)

(١) الشطوء جمع شطء وهو اول ما يخرج من النبات .

تَسَمَّعُ إذ تَهْوِى مواقعُ قَطْـرِه
وتُبْصِرُها فى الضَّوءِ وهى لوائح
وقد دبَّ فى الجِسْمِ الحَرارةُ والهوى
وحَبَّ إلى النَّفس الصِّبا والتَّصابُح
وعند الرُّبَى قد أشرف الحَمَلُ الذى
عليه ضِياءُ الشَّمْسِ والطير صادح
ومدَّتْ اليك الكأسَ من خمر وصلها
فَتاةٌ لها دَنٌّ من الحُبِّ طافح
ألا إنَّ أيام الشباب التى مَضَت
بكينا عليها فالدموع سوافح
ولازال فى القلب الشَّباب الذى مَضى
كما كان والاشواقُ مِنهُنَّ جامح
وأبهَجَ منك النَّفس لما تبَرَّجَت
لدى البركة الغيد الملاح الصَّبائح
سَبَحْنَ على ضَوْءِ النَّهار ورُبَّما
صَبَحْنك بالأهواءِ اذ أنت سابح
تجردْنَ الا من شُفوف رقيقةٍ
خَصَصْنَ بها والحُورُ هُنَّ الرواجح
تَذَكَّرت ياخِلِّى الفتاةَ التى لها
خِصال المها والخاطِرِ المتَسامح
ويَمْلأ منا جانبَ الكَف نَهدُها
اذا نَفَحتْه وهو للثوب نافح
وقد زوَّدتنا ساعة البَيْن قُبلَةً
وجدنا لها دِفئاً كأن باح بائح

متى نحن شِئنا عاوَدَ الفَمَ طَعْمُهـا
على حَذَرٍ لا يَنْضَحُ العِرْض ماضح

كأنَّ بـه تُفّاحـةً عَبْقَرِيّـةً
لها أرجٌ أنفاسـها تتفـاوح

وذلك رزقُ الله باليُسْرِ سـاقـه
إلينا ويَومُ الصَّومِ أغبَرُ كالـح

ذَكَرتُ بهـا ذاك الرَّبيع الذى مَضَى
بلَذّتهن هَيْنَمَات الشَّبَاب المُبَارح

أجِدُّكَ تَزْهُوك الصَّبابة بَعْدَمَا
تَولّى الصبا وانجاب عنك المسائح (١)

أتذكر لما تَجٌ وَابِلِ روْضـةٍ
وللتَّوصُّلِ رِفْدٌ عِنْد هَيْفَاء سانح

وليلتنـا اذ مَجٌ فى فَمِـك النَّدى
نَدَاهـا ومِنْهـا طِيبُ العِطْر فائح

تُضِيءُ لكَ اللَّيل التَّمامَ جِيدها
كأنَّ بريقَ النَّحر منها مَصابح (٢)

وترنو وبالخدَّين تَدْنُو وثغرها
يَقُـول أليس العيش فيه المفاسـح

وقالت ألا إنَّ النسـاء غـوادر
وما إنْ إلى العليا لَهُنَّ منادح

كأن وَهبتكَ الشَّمرَ وهى سَخِيَّةٌ
بـه لا تبالى والنفوس شحائح

(١) أى شعر الشباب الكثيف الفاحم .
(٢) مصابح : مصابيح .

وأخلفتها ميعاد يوم لقائها
بملكك والدنيا سنيح وبارح (١)

ولامك فيها لائم وكأنه
لما نلت منها حاسد القلب كاشح

وصادفتها من بعد دهر ولم تكن
تظن بأن تلقاك والقلب صافح

وتسأله لم تنس بعض الذى مضى
ولم ينسه والدهر فيه المتارح

ولازال فى الاحشاء من ذكر عهدها
هيام وتبريح من الوجد قارح

ألم تر أنى لا أزال مع النوى
طريحاً وقلبى للشكيات طارح

صبرت على مر الليالى بكل ما
يسوء فآن الآن أنى فارح

ولو شاء رب العرش أهلك بطشه
أعادى إن القلب يرجو وطامح

إلى نيل غايات الأمانى إنها
لعمرك عند الله والله مانح

عليه توكلنا وأخبت سرنا
إليه وعنا لطفه الوزر ضارح

وصلى على الهادى النبى إلهنا
صلاة بها تزكو وتصفو القرائح

وسلم تسليماً مدى الدهر سرمداً
كثيرا ورب العرش منه النوافح

(١) بملكك اى وانت قادر متصرف والميم مثلثة وبثلث جميعا قرىء فى سورة طه.

بـه قـد تَوسَّلنا وفيـه نجاتنـا
ومن فَيْضِه فَيْضُ المُحِبِّين مائـح
وقلت سأنوى الحـجَّ بِرًّا بوالـدى
ووالدتـى والحـجُّ فيـه المصـالح
وقلتُ سأنوى الحجَّ من عـام قابـلٍ
لوالدتى واللهَ إن شـاءَ سـامح
ومن بَعْدِهـا أنوى أحجُّ لوالـدى
فهـل أنـت ياخلّى إلى الحج رائـح
إن الله يَرجعنـى مُعافىً مُوفّقـاً
فلله عِنْدى والرسـول ذبائـح
نـذورٌ بهـا نوفى إلى الله علّهـا
تَذَادُ بهـا عنـا النّوى والنّواطـح
وقـد تَفتَح الفَتْحَ الجليـل الذى بـه
تَنَال غـداً عَفوَ الالـهِ الفواتـح

* * * * *

وأطربنى مـن جَانِب النيـل نَخلَةٌ
وما ضَمّنتْ فى القَفرِ تلـك الضَرائـح
وكم لك فى جُنْحٍ مـن الليـل عَبْرَةٌ
تَرقرُقها مـن راحِ روحـك راشـح
وكـم لك من ذِكرى غـرامٍ وحنـةٍ
تَحِنُّ بهـا إذ أنت هيمـان سائـح
أتذكرُ مـن ذات الدلال انشراحهـا
اليك بُودٍّ القلب حـين تصـافِح

واعراضَهـا اذ أعرضـت عنـك يافتى
وإقبالهـا حَسْنَـاءُ والجيـد واضـح
وإن لهـا فى الحـاجِبَيْن لصَوْلَةً
وحُكْماً وفى العينـين باللّهوِ مـازح
وتَبَسمِ من ظَلْمِ الثّنايـا بِمْزنَـةٍ
سلافِيَةٍ دلّـتْ عليهـا الملامـح
ولذّلك شِعرٌ مـن أبى الطيـب الذى
سما فارس منـه على الدهـر راسـح
وروّى ولم يَرْحَمْ من الناس رُمحَـه
وراح ومنـه الطائـر الفَرْدُ صـائح
وقـد زعمت ليلى بأنّـك مثـله
زَمـان الصِّبا ريّانُ والبُسْرُ بالح (١)
وذَكَرْكَ الخَوْدُ الرَجيحة ليمُهـا
إليْكَ وكادَتْ بالغـرام تصـارح
وتَرْشيحَها ذاكِ الرُضـاب الذى همّتْ
لوامعُ منـه كالسّـرابِ لوائـح
إذا مـاهـى احلَوْلَتْ تبلّج وجنهـا
وإتسائها فى النَمَيْن بالودّ لامـح
وإن هى لم تحلَولْ غامـت بوجههـا
كما هَاجَ بالبَحْرِ الرّيـاح اللواقح
وتَحْسِبها بِلقيسَ والصرْحُ لُجّـةٌ
ومن دونها زُهْرُ النجـوم السـوابح

(١) البسر : البـلح .

شـديدةٌ أسـر النفس لكنْ قلبهـــا
برقٌ ومنـه القسـوريُّ المماصـح (١)
وما كفرتـــك الأ تنعـــم الثرة التى
حَبَوْت ولكنّ الليـــالى فـــوادح
وذكرك الحســناء أيـــام ودّهـــا
وكـان لها عَهْدٌ مـن الودّ صـالح
ألا انهـــا والله لازال فى الحَـــشى
هَواهـــا وان المـــرء ماعَاش كادح
وإن لهـــا لَوْنـــاً كريمـــا ومنظـــراً
وسيماً ومنها القلـب ماشـــاء مـــادح
وكم لك مـن سرٍ كتمـت ولوعـــةٍ
كظمت وطول الصـبر للمرءِ فاضح
ودرّةِ شعرٍ قـــد نظـــمت يتيمـــةٍ
لها ألقٌ فى زَنْدٍ فكـــرك قـــادح
وأهتِفُ بالعَشْرِ الطّوال ويوســـفٍ
أريد خشـــاة الله والليـــل جانـح (٢)
وصلّيت خَمْسى أسـأل الله خاشـــعاً
وعندى صلاحُ النّفسِ والدّهر طالـح
وإنّ لديك البِرّ للأهلِ والرّضـــا
عن الناس والعَفْوُ الصحيحُ المصـالح
وخَوْفُ الالــه البرُّ أجْمَعُ فاعتمـــدْ
عليـه وعند الله تلْقَى المناجـــح

(١) القسورى المماصح : الشجاع القتال .
(٢) هى من البقـرة الى هـود .

تَذَكَّرت جيراني وأهلي ومعشري

وروضاتِ جنّاتي وحَيثُ أكافح

وسبّوحٍ قدّوس وقد هينمت بها

من القوم من بَعدِ العشاء التراوح (١)

ولازلت مشبوب الشباة مجاهدا

يُنَاطِحني كَيدُ العدا وأناطح

وقد علم التُّربُ الذي فَوقَه الحصى

بقُربِ الضريح الفَرْدِ أنّي ناجح

وأنّي اذا ما شمّر القَومُ لم يَزَلْ

لدى الجدِّ منّي شَمَّرِيٌّ مُشايح

ومازال منّي للخطوب وريبها

بنَبلِ سهامِ الله للقَومِ ناضح

ومازال عندي للقريض معاوِدٌ

بريدُ سُرى الوجدانِ للشوق شاطح

وحَيّتك تدنو بالحرارة إنها

تَجيش بها جَيشَ القدورِ المطامح

وقد عرَفَ الشّيخ الجليل جمالها

وأنّ لها عَينَيْ غَزالٍ فسامحوا

وقد صَرّف الآيات ربّك للورى

وقد دارستناها الغواني الصرائح

وفي الشّيخ من عهد الجدودِ صَبابةٌ

وكانوا وهُمْ أهل الكمال الجحاجح

---

(١) اى التراويح . تعطف التوين سبوح او تجر قدوس على الاضافة الى سبوح من الدعاء سبوح قدوس رب الملائكة والروح .

وكانت لهم كأس الوصال رَوِيّة
وبُعْدُ المدى والسؤدد المتراوح

تذكرت عَبْد الله شَيْخى ولا يَزَلْ
عليه سحاب من رضا الله دالح

ويذكرنى سمت الشبيبى سمته
عليه التقى والبرّ فى الوجه ساجح

وقد كان يرعانى وكان يحبّنى
ومن سرّه فى سرّ روحى مسابح

وكم قد غرفنا غرفة العلم عنده
ولا زال منّا غارف العلم ماتح

وإذ أمدح المدح الطوال الذى له
يقام وكانت من هواى المدائح

وصوت ابن عبد العال فيه حماسة
ونشوة ذى بشر وفيه تفاصح

وان ذكر المهدى أبرق طرفه
وكاد به يلتقى الكتيبة ناطح

وقد كان آبائى رجالا أعزّة
فعنهم وقد دار الزمان أنافح

وأبصر من خلف الزجاج الذى لنا
وجوه الفلانيات والنيل نازح

وقد برزت أكتافهن وقد بدا
مع الشدّة اللين الذى هو جانح

---

(١) اى يثرن الغبار ، من قوله تعالى : والعاديات ضبحا .

يَغرْبلن بالأيـدى ويَسنرِ عـن فى الخطا
ويَعَدُون أحيـاناً وهـنَّ ضـوابح ( )

وكـدتُ أشـم النيـل لمـا تَنَفّست
الىّ بأنفـاس الشّـمال الروائـح

وجَلْجَل طَبْلُ القَوم فى وَضَحِ الضحى
وخَفّ إليـه الذاكـرون الوحـاوح

بَحىٍ وبالقيـوم والله دائـم
وقالوا أبو « القيمان » بَحرٌ طامـح (١)

وقـد نَظم الكردىّ قَبْـل قصيدة
وقد جـاء فيها « التراهات الصّحاصح » (٢)

وذكّرنـى الكـردىّ أيـامَ دَارِكُـم
لَدَيْنهـا النّدى والوَزْن بالقِسط راجح

واذ يَرْهـب الأقـوام جانب شَيْخنا الـ
ـكبير وقمـرىّ الأراكـات نائـح

وعَنْد القـرى جـاءت صَوانٍ كبيرة
تَنُوء كمـا نـاء السحاب الدوالح

حباهـا تِلادُ الطيبـين وزانهـا
مكارمُ آدابٍ هنـاك صحـائح (٣)

واذا لوحـك الهجليجُ بالجـير مشرق الـ
ـعمـار وماء البير للجـير ماسـح

---

(١) قال المادح : ابو القيمان بحر طامح واسمه الجيلى ابا صالح .
(٢) اشارة الى قول الكردى رحمه الله يصف شعر احدهم فى كلمة له طويلة « وما هو الا الترهات الصحاصح » او « ولكنهن الترهات الصحاصح » ما ادرى ايهمـا فلينظر .
(٣) صحـائح صفـة لمكارم .

وإذ يكتب القوم المحاية إتهما
شفاءٌ وخفقت للصلاة الجوارح

ودارسنى رُبْع الطويلات أبْجَر
عليه صَفَاءُ النفس والسَّمْتُ صالح

وصَوت ابن نور الدين رَقّ وكم لنا
تَطيبُ إلى خَيْرِ الأنام المدائح

به تكشف الجلى وتَعلو على العدا
وتستتر بالستر الجميل الفضائح

بجاهِ النبى المصطفى إننى له
مُحِبّ ومشتاق وبالمدح صادح

عليك صلاة الله ثم سلامه
ألا يارسول الله انى طامح

وأنت لنا يَوم الحساب وَقبله
اذا ما سألناك الشفاعة لامح

عليك صلاة الله ثم سلامه
صلاةٌ بها نَنجو ويَرْبح رابح

على السَيّد الهادى الذى نور هَدْيه
على الكَوْن فى لَيْل الضلالات لائح

به قد توسلنا نريد به الغنى
غِنى أنْ لنا فى الطيبات منادح

وما كان من يرجو به الله سائلا
يخيب ولو كادت تطيح الطوائح (١)

* * * * *

(١) اى ولو كادت تذهب به الحوادث التى تطيح بالناس . ولك فى تطيح ضم التاء وفتحها (ثلاثى ورباعى) والله اعلم .

قرية وبندر

قال الشاعر توفيق صالح جبريل (1)

أيا دامرَ المجذوبِ لا أنت قريـــة
بداوتها تبـــدو ولا أنـت بنـــدر

وأجــــاز صاحب الديوان ....

بلى أنـــا حقـــا فـــوق ذلـــك كلّه
ودونـــى خنرطـــوم وبارا وبَرْ بـــر

ويا دامـــرَ المجـــذوب أنت مليحـــة
تـــذكّرتهـــا يابُعْدَ ما أتذكـــر

وفيـــك بنـــو المجذوب أبنـــاءُ بَيْرقٍ
وابناءُ عبـــد الله والفضـــل يذكَـــر

وفيك جليسُ المصـــطفى كـــان دَمعـــه
مـــن الشّـــوقِ لمّـــا شامه يتحـــدر

وفيـــك عميـــدُ القـــوم لما أراده
بَنُوه علـــى تَرْكِ ابْنِهِ وهـــو أكبـــر

تذكّرْت ياخـــلى ليـــالى مبيّتنـــا
بِمَسْجِدهـــا والقومُ باكٍ وذَكـــر

وكـــان ابنُ ثور الدّين نشوانَ صيّتاً
وكان زَمِيـــلى فى الدّراســـة أبْجَر

واذ داركـــم فيهـــا السّماحـــة والنّدى
ووالدُك الحَبْـــرُ المَدِيـــحَ يُحبّـــر

---

(1) رحمه الله رحمـــة واسعـــة .

واذ أنا فيكم مثلكم وحفظتمو
ذمام أبي إني لذلك أشكر
أتذكر شرحاً قد نقلناه مرة
وللقرشي بالعروض تبصر
فدونك أبياتاً إليك بعثتها
وهيجني صوت رخيم معبر

* * * * *

لقد هلهل الشعر امرؤ القيس إذ بكى
ومن دونه خوص الركاب وأوجر
ولما بدا حوران والآل دونه
نظرت فشاق العين ياصاح منظر
(عليك صلاة الله ثم سلامه
ألا يارسول الله إني) أشعر
(صببت دموعاً يشهد الحزن أنها
أتت من فؤاد بالهوى يتفطر
(فؤادي بحب المصطفى متنور
ولي فيه أغراض إليه سأذكر)
وطارت بنا طيارة ذات خفة
وقد كاد منها الباب لايتسكر
وشاقتك ليلى حينما قد تبرقعت
وكاد محياها من النور يسفر
تقطع منها النور لما تلطفت
ولاح الجبين واطمأن المخصر (١)

(١) اشارة الى قول الشيخ رضي الله عنه :
وومضة برق ام ضياء جبينها تقطع منه النور اذ تلطف

والقتْ على الكُرسيّ للنَّوم رأسها
الى أن بدا جَيبُ القميص المُقوَّر
وخالط شَفَّافَ السَّواد بياضُها
كأن على الخدّ النَّدى يتقطَّر
ترى حدقاً يغفو وأنفاً وجانباً
من الَّم يبدو وهو شَيحانُ أزْور (١)
(كأنَّ على لَبَّاتها جَمْرَ مُصطَلٍ)
وفى قَدَمَيها جَمْرُ تِبْرٍ يُجَمَّر
ومدّت بساقٍ عَبْلَةٍ وكأنها
بذلك لاتعْنَى ولا تَتَستّر
ألا إننا عند الصبابة والهوى
لأجل مَديح المُصطفى نَتَبَختَر
ونَمشِى به نَلْقى الكُماةَ بِحَدّه
كما قد مَشَى للحَرْب لَيثٌ غَضَنفَر
كمَشْىِ سِماكٍ يَومَ أحُدٍ مُباهِياً
بسَيْف رَسُول الله والنّاسُ تَنظُر (٢)
وشدَّ لِكَىْ يلقى العَدُوَّ برأسِه
عِصابَةَ مَوتٍ والصحابة حُضَّر
أولئك أنصارُ النبىِّ الألى بِهِمْ
أقيمَ عَمُودُ الدِّين والحَربُ تُسعَر
بنو قَيلَةٍ أهلُ البَسالة فى الوغى
لهم يَومَ بَدرٍ والقليبِ وخَيبَر (٣)

---

(١) شيحان : مشيح منصرف .
(٢) هو سيدنا ابودجانه سماك بن خرشه رضى الله عنه .
(٣) القليب كان ببدر ولك رفعها .. اى بهم نصر النبى صلى الله عليه وسلم.

ويَومْ حُنَيْنٍ حين أحمَوا وَطِيسَه
ومن قَبلُ قد كادت هَوازِنُ تَظهَرَ

وأشرَقَ خَيرُ الناس يَنظُرُ فِعالَهم
ويَحمَدُه لَمّا تَداعَوا وأشعَروا (1)

حَبَبْنا رسول الله من أوّل الصِّبا
الى الآن نَرجُو في هواه تعَمُّرُ

عرّفنا به اللهَ العليَّ وإننا
الى الله نَعنُو والقُلوبُ تَطهُرُ

ولمّا صَدَحنا بالدُّعاءِ تهزّمت
إلينا دياجيرُ الظَّلام تقَهقَرَ

تُصلّي بأصواتٍ خَفِضنَ تأدُّبا
إليه جميعاً خاشعين ونَجأرُ

نُصَلّي على الهادي الشَّفيعِ نَبيِّنا الـ
بديعِ وآلافُ السَّلامِ تُكَرَّرُ

الى أن رأينا سَوحَه حينما بَدَتْ
تَلُوحُ وأنوارُ المدينةِ تَنورُ

سَمونا له لما دنونا صَبابةً
وشام سناه العارفون فكبّروا

وأنظُرُ من شُبّاكِ غُرفَةِ فُندُقي
الى القُبّةِ الخَضراءِ واللهَ أشكرُ

وأرقُبُ الوَقتَ الذي فيه يأذَنُ الـ
جنابُ إلينا الهاشِميُّ المُعَطَّرُ

---

(1) قالوا : يالخزرج هذا كان شعارهم رضى الله عنهم .

وإن له نــورا الى العرش ساطعــا
تشــاهده العينــانِ والقَلبُ ينظــر (١)
وحاشى إلــه العــالمــين بَرَدْنــا
ونَحن لــه فى حبّــه نَتَفَكــر (٢)

* * * * *

ألا ليت شعرى هــل أبيتــنّ ليلــة
أمامى بأرضِ الــروم كوبٌ ودِفتَر
فانّ بــلاد الروم فيهــا محاســنٌ
وان بهــا العيشَ الرخيــم ليَخبَــر
وأنــا لنبغى فى الحيــاة مكاســبا
وما مكتَسَبٌ الا القتــالُ المشمّر
وإنّــا لنلقَى الحادثــات بأنفس
اذا مَسّهــا لَذعُ المصيبات تَصبــر

* * * * *

وقــد جــاءنى أن الرجــال تَخَيّروا
الى الأمــر مَحجوباً وقــد يتَخَيّر
وكلُ أناسٍ عصبَةٌ ومعَســكر
ونَحن لعمــرى عصبَــةٌ ومعســكر
ولاشك محجــوبٌ أديــبٌ مهَذّب
وكــان لــه فى سابــق الدهر مفخَــر
ومن قبل رُزْنــا كــل ذى خنزوانةٍ
إذا ما أرنــاهُ المــروءة يَضجَــر

---

(١) اشارة الى قول الشيخ رضى الله عنه فى لقد
(٢) اله مثلثة الهــاء اعــرابا .

ألــم تــر للدُّنيــا شَجَتْنا شَجُونهــا
وإن التزام الصَّبْرِ أجدى وأجــدر
وصَوْمُك عــن ذِكرى أمورٍ كثــيرة
كصــومك يَومَ الشكِّ لاشــكَّ تؤجر

* * * * *

جفتنــا لعمــرى أمُّ عمروٍ وربمــا
إلى وصــلنا الحســناءُ قد تَتَعَطَّــر
وما أمُّ عمــروٍ غــير جيــداء دارهــا
بحيث يَفيضُ البَحْرُ والمــاء أكــدر
وقــد أطربتنــا بِنتُ قَومٍ طويلــةٌ
على الصَّدْرِ منهــا برتقــال مكَــوَّر
وفى الشّفةِ العَذراء منهــا انهدالــةٌ
وفى المَشْى لما أن مَشَتْ تتحــدَّر
تَغِيمُ بعينيــها وتصحــو وإننــا
لنَرْنــو إليهــا وهْىَ لاتتــأثر
كأنّــا إذا نرنــو إليهــا نَغُوص فى
بِحارٍ بألوان الفراشــات تَزْخــر
وقــد جَلَسَتْ يومــاً إلينــا ولاترى
ونَحْنُ نصــوغ الشعر والشّعْرُ يأسر
فلمــا رفعنــا طَرْفَنَــا وإذا بهــا
عجبنــا لعمرى شَدَّ ما قــد تفكــر
وقــد جزعــت يَوْمــاً لالمــام حــادثٍ
ألمَّ ولم تَشْعُرْ بــه وهى تقــدِر

وقد رشَّحت دمعاً لها فعرفته
وكدتُ عليها رقة أتفطر
أخذت بكفيها وقلت لها اقعدى
فمنك بُكاء الطِّفل لايُتَصَوَّرُ
وقد عرفت عطفاً عليها وطأطأت
ورام ابتساما ثغرُها وهو يَفْغَر
الى أن حملناها الى دار أهلها
وما أحد من سائر الناس يشعر
أردنا لها سترا وما زال دَأبُنا
قديماً على جاراتنا تتستَّر
وآت بِفُستان أنيقٍ ومَنْظَرٍ
رَشيقٍ وزُنَّارٌ عليها مزكر
وتَضحَك كالطِّفل الغرير وإنها
لكالطِّفل إلا أنها هى أوثر
وقد كان من أمِّ البنية قبلها
إلينا بِعَينَيها أسَىً وتَفَشُّر
وكان يَنُوء الطَّرْف منها بضاحِكٍ
على حَسَرات غَوْرُها ليس يُسبَر
وقد قبَّلتنا ساعةَ البَيْنِ قُبلة
بلا ظَماٍ تَخشى العيون وتَحذر
وتَسلو وهل يَسلو فؤادكَ بعدما
سَطرنَ به من قِصة الحبِّ أسطر
وهيهات هيهاتَ الزَّمانُ الذى نَأى
وعَيشُك هَذا دَأبُه يَتَغَيَّر

* * * * *

وجاءتْ إلينا بالكتابِ وطيَّه الـ
سقودُ رَدَاحُ المقلتين سُبَيْطِر

أتت بكتابٍ من رئيسٍ محاسب
دقيقٍ على أعبائه متسيطر [1]

ترى تعَبَ التفكير فى نظراته
ولأيًا اذا رام الحديث يُعبِّر

ويَكشر مُضنىً بابتسامٍ وقلبه
على ثِقةٍ بالأمر ساعة يكشر

وقد علِمت أن بشَّرتنا بوجهها
وإن تك جاءت بالعطاءِ تبشر

وقلنا لها أهلا وسهلاً ومرحبا
فإنك نعم الزائر المتزوَّر

وهل لك فى برد الشراب فإنه
يُجاء به للضَّيف ساعة يحضر

فقالت ألا كلا ومدَّت بدفتر
لإمضائنا يَغْشى الصَّحيفة خِنصَر

وان قلوب الغانيات رقيقةٌ
وإن عزيز الصَّيد إن ريع يَنفِر

وهمّت بكَلا لحظةً ثم راجعت
حجاها ومن قبلُ ازدهاها التكبُّر

وقالت نعم ثم اطمأنت بمجلس
يُطِلُّ علينا وجهها المتحضر

---

(١) اى هو متسيطر ولك ان تقول يتسيطر وما اثبتنا اجود وفى النحو يجوز النصب والرفع والجر جميعا ههنا والله اعلم .

اذا ما أرتنا الثغرَ منها تألقت
عوارضه حتى فؤادك يُحبَر
وقد نَمرتنا غرّة في جبينها
وشَعر لها حرُّ الغفيرات أشقر
وقد فرقته من مقدّم رأسها
الى حيث منه شُعبتانِ المؤخر
يرى منهما يافوخها وقذالها
بحسنهما حسّانة الجيدِ تَفخر
عظيمة أكتافٍ طويلة قامة
كأن تَخلّة منها إلى الباب تخطِر
وماشف للعينين شيئا قميصها الـ
ذي هو دون الركبتين مقصر
سوى ظَلَلٍ من خلفها قد رأيتها
يطول الأسى من ذكرها والتحسر
وإن لنا في شاطىء النيل منزلاً
رفيعاً وفينا للطواغيت خنجر
وفينا وداد من يروم ودادنا
فماء وليمون وثلج وسكر

* * * * *

ألا قد سباني البابلي المعصفر
ورنّم عليه الخال ريّان أخضر
ألا ان قلبي باسم متفائل
وشعري كشعر الاولين مُحبّر

ولا أحسب الاسلام إلا تحية
سلاما سلاما والقلوب تطهر
وإسلام نفس المرء لله كلها
وحرية التفكير حين تفكر
وحبك بيت الله والدين كله
وحب النبي والمحبون زور
وقد كان فينا أهل مصر جماعة
وحبهمو للمصطفى ليس ينكر
وقد رافقت عماً أو أبا لها
فتاة به ترجو لدى الله تؤجر
كسيحا يجر الركبتين وكفه
يسير بها يبغى الرضا لايفتر
تسير بإبريق الصلاة أمامه
ويرنو الى الله العلى ويشكر
ومن طلب الدين الحنيف ولم يقل
بحب رسول الله لاشك يكفر
فلا تسمعن للجاهلين مقالة
ألا إن امر الجاهلين متبر
ألا ياخليلى اللذين تواصيا
ألا فاعلما أنى لبيب مفكر
وأنى مذ رزت الأمور وجدتها
تشابه منها جوهرى وجوهر
وقد زرت بيت الله وازددت أننى
بطيبة فى أنوار أغتمر

وأنى فيهـــا قــد وجــدتُ سكينــةً
حبــانى إياهــا الجنــانُ المطهـــر
فلا تحســـبنْ الأمــــر هَيّناً فإنــه
يهــون بصـــدق النيـــة المتعســر
وليس سبيل الدين ياصــاح مظهــرا
اذا غرّ طـــلاّب الديانـــات مظهـــر
ولكنـــه سِرٌ خفـــى وشقّـــة
مـــن السـير لايقوَى عليهــا المُسيّر
وقــد قيــل فى التوحيـد قدمــا وخطه
شـيوخ كثـير مِالكىٌ وأشـــعر
وان عطـــاء الله منحـــة مانـــح
وهَوبٍ وليســت باكتســاب تقــدّر
ولازالـــتَ اسرارُ المهيمـــن أمرهـــا
بغـــير ســـنا الايمـــان لايتَصَوَّر
وانــا جميعـــا ناظـــرون لوجهـــه
غـــداً إننـــا حقـــاً اليـه سنحشَر
وضَلّ أخــو شرك يراهـــا نهايـــة
وأنّ امـــرأ يفـــنى عشية يقبـــر
ولا أحــدٌ يخلــو مـــن الشرك إنـــه
خَفِىّ لــذا يغلــو النفاق ويكثـــر

* * * * *

(ومـــن عرف الايـــام معرفتـــى بهـــا)
كذلـــك قـــال العبقـــرىُ المشهـــر

أسِيتُ لـه فى مصـر اذ هـو يَائس
وفى الشـام كادت ذمـة منـه تخفـر
ولمـا أتـى أرض العـراق تنمـرت
(أفى كل يـوم تحـت ضِبنِى شُوَيعر)
ولما اسـتوى دَستَ الخلـود تَسـوَّروا
الى أن هـوى منـه صريـع معفـر
وقـد نمّـه طـه وأحسِب أنـه
تحامـل شيئاً وهـو بالأمـر أبصـر
وقـد بلـغ الشـيخ العلائىُ رتبـة
من الفَضل الا أن أحمـد أشـعر
وكـان الوزيـر المغربىُ صديقـه
وكانت له مـن جيـد الشـعر أبحُـر
وانـت بعيـد الشـوق مشتبه الهـوى
من الوَجد لاتكبـو ولاتتعثـر
وان الذى يصـبو كمـا قـد صبوت لا
لايزال أخـا دمعٍ مـن الشوق يقطـر

* * * * *

ونائبـةٍ فى البرلـمان جديـدةٍ
جلاها لنـا مـن جانب الخدر منبـر
نهنئهـا بالفـوز إنـا يَسُرُّنـا
مـن الوَطَنِ المستقبـل المتحـرر
الا قـل لمحجـوب تحيـة شاعـر
وأنت قديمـا شـاعرٌ ومفكـر

أردناك للجلّى فكن من حماتها
ولازلت للجلى خُذَيْذانُ تذخر

وعش يا أبا سامى مليّاً ولاتَزَلْ
أميراً على ود القلوب تؤمّر

وقد سرّنى أن الخليل مُحَمّداً
تخيّر إذ للأمر ورد ومصدر

عرفت له الودّ القديم ولم يزل
على عهده والحر لايتغير

وكنا زمان الدرس نقصد داره
ومنزله رَحْبٌ لنا وميسر

* * * * *

بنو وطنى قلبى بهم متعلق
إذا جنّ ليلى والخليّون سمّر

تذكرت أهلى الصالحين ودامرى
ومَرْقَد آبائى الذين تخيّروا

تذكرتهم والبيدُ بينى وبينهم
وصبْحاً وظهْرا والعشيّة نمْطر

ولاحَتْ بروق فى السماء مُخِيفَةٌ
لها شُعَبٌ زُرْقٌ الضياءِ وأنهر

ومنهنّ ذو أغصان شَوْكٍ كأنه
به شَرَرٌ من ملة الجمر يَنْتَثر

يروع كما عين الكمينةِ روّعت
بجاحمها لمّا إلى الطوب يَنْظرُ (١)

(١) الكمينة هى التنور الذى يصنع فيه الآجر .

تذكــرت ترداى أخــى بــين منــزل
وحَيْث لنـا جَرْفٌ بسَوْبَـة أغبـــر

* * * * *

ألا إنّ توفيــق بــن جبريــل هاجنـــى
إلى الشعر منـــه بَيْتٌ شـــعر محبّـــر
وتَوْفيــق عنــدى شــاعر ذُو أصـــالةٍ
مُجيدٌ شــديــد الوَجْدِ عنــه يعبّـــر
وذكّرنى أيـــام دامـــر قَبْلَهــــا
زَمانٌ لنــا فى جانــب القاش أغضَـــر
زمــان الصــبا غضٌ وأهلـــك كلهـــم
حُضُور وإذ ريــب الحــوادث مُقْصِرُ
وإنـــك قــد اصبحـــت ياصاح مفردا
وما أحــدٌ مــن بينهــم لــك ينصــر
وقد عَلِمــوا أن لو دَعَوْكَ أجَبْتهـــم
ولكنّهـــم خَافُوا وخَامُوا وأدبــروا
عسى صـــاحبى يَحْنــو علينــا زماننا
كما قــد حنت فى ســالف الدهــر أعصر
تذكــرت ياخلتى ليـــالى مَبِيتنـــا
بتَاكَة إذ كنـــا بتاكـــة نَسْمُـــر
وإذ عـــين ثوتيـــلٍ رواءٌ وأهلنـــا
هنـــاك ســـواءٌ غائبــون وحُضّــر
وزرنــاكمو فى بيتكــم ذات مَـــرّةٍ
وكان هــوى قلبــى قطــار مزمجـــر

نسير معا تف تف تنف تف تنف تنف

وأنت نبطئ وأنت ستقطر

وزرناكمو ليلاً بخرطوم مرة

وكان مع الخبز الحليب المسكر

وأمك عادتني وقد كان برها

عليّ كما مدّ الدميرة يزخر

وقد قيل عين أوشكت أن تصيبني

غداة رثيت الشيخ صوتي يجهر

أتذكر هذا إن هذا جميعه

مضى وهو في قلبي لعمري يذخر

وإني كريم أريحي مشرزاً

بشكر الذي أهواه قد أتفجر

ألم ترني لما نأيت تعطفت

إلى وطني مني ضمائر غور

وراجعت أيام الطفولة إنها

بعيد ولكن عهدها هو أنضر

وليس كحب الوالدين وإنما

زمان الشباب خفة وتعثر

وتعطو إلى الحب البعيد نفوسنا

تريد وراء الغيب ما الغيب يستتر

نريد الخلود المستحيل وقد نرى

مصارعنا يدنون إذ نحن نكبر

وإن لنا عند النساء مودة

نريد بهن الأم هيهات تظفر

(ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة)
بحيث الحصى يحصى وحولى معشر[1]

اذا ما أفاض الناس والله فوقهم
منيف بعين يعملون وينظر

أقول لخلتى هل تذكرت قومنا
عشية اذ هم بالسفينة سيروا

وقالوا توكلنا وثنوا بردف
وصلوا بمشتاقين والله كبروا [2]

وقد جلسوا فى بلغ جلسة الرضا
ومن بعدها حر المديح تخيروا [3]

(فؤادى بحب المصطفى متنور
ولى فيه آراب اليه سأذكر)

(وحاشى جناب الهاشمى يردنا)
ونحن به نرجو النجاة وتنظر

(عليك صلاة الله ثم سلامه
ألا يارسول الله إنى) أشعر

بنورك فى هذى الدجنة نهتدى
ونهواك حقا والصلاة نكرر

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما
ولله الحمد أولا وأخيرا وبه التوفيق .

---

(١) الى بمزدلفة .
(٢) اشارة الى معالج الشيخ رضى الله عنه: عليه توكلنا بردف السلام وصلينا مشتاقين
(٣) اشارة الى مولد الشيخ رضى الله عنه بلغ اللهم روحه الشريفة... الخ.